

البحث المأهول عن العرب المسلمين

انصب معظم بحوث المحدثين في تأريخ العرب على الناحيتين السياسية والأدبية . أما النواحي الأخرى من نواحي الحياة ، ولا سيما الناحية العلمية ، فلم تحظ إلا بعناية قليلة ، مع أنها ليست بأقل خطورة منها من الناحية السياسية أو الناحية الأدبية للأمم ما . ولهذا كان علمنا بالبحث العلمي وباشتغال العرب المسلمين بالعلوم ضئيلاً ساذجاً ، وأكثره من النوع العام الذي لا يستند الى دراسات نقد وتحليل ومقارنات ومقابلات مع الأصول القديمة فجاء شيئاً ناقصاً ، لا يقدم مادة في تأريخ تطور العلم ، ولا رأياً في درجة تقدمه ، ومقدار صفائه عند العرب المسلمين .

وحيثما أقول : العلم ، أفهم ما يقال له « Science » في الإنكليزية من أصل كلمة « Scientia » اللاتينية و « Wissenschaft » في الألمانية . ولهذا ان أتحدث هنا إلا عن الموضوعات التي يدخلها أبناء هذا اليوم في هذا الإطار ، كالكيمياء والصيدلة والفلاحة والرياضيات والفلك وأمثال ذلك . وسأحصر كلامي هنا في التحدث عن الكيمياء والفلاحة

هذا ، ولا بد لي ، قبل الدخول في الموضوع ، من الإشارة الى أن من أهم أسباب جهلنا بتأريخ تطور العلم وتطور بحوثه عند العرب المسلمين هو قلة المطبوع من كتب العلوم العربية القديمة ، وسقم أكثر المطبوع من حيث التحقيق والإخراج وكثرة الخطأ فيه . والنصراف أكثر المحققين والناشرين للمخطوطات عن تحقيق المخطوطات العلمية والحرفية وميلهم الى تحقيق الكتب التاريخية والأدبية ، وهي كتب يكتب لها البيع

البحث العلمي عند العرب المسلمين

والانتشار بسهولة ، فبقي معظم كتب العلم مخطوطاً مختبئاً في زوايا المكتبات لا يعرف عنه إلا القليل .

وهذا مما حرمنا الوقوف على الحركة العلمية عند العرب وقروفاً صحيحاً واضحاً . وللتغلب على هذه المشكلات وأمثالها لا بد من قيام المؤسسات الثقافية الرسمية وشبه الرسمية في الأقطار العربية من بحث المخطوطات العلمية بما لها من قدرة مادية وعلمية ومعنوية ، واستناد ذلك كله إلى أعضائها العلماء أو إلى العلماء المتخصصين بتحقيق المخطوطات والعلماء المتخصصين في المادة التي تخصها المخطوطة بدراستها من النواحي اللغوية والاختصاصية وتحقيقتها تحقيقاً علمياً مع دراسة تحليل ونقد ، ليكون إخراج الكتاب كاملاً دقيقاً للمؤرخين والباحثين والمطالعين ، وبذلك يكون في وسع المؤرخ الاستناد إلى مثل هذه المراجع في ابداء رأيه في الحركة العلمية عند العرب المسلمين .

ولما كان التراث العربي العلمي يحتاج جهود علماء جميع الأقطار العربية والإسلامية ، وكان ذلك يحتاج إلى وضع خطة موحدة بين المؤسسات العلمية والثقافية في نشر المخطوطات وتحقيقتها تحقيقاً علمياً دقيقاً صحيحاً ، فن الواجب مراجعة دائرة نشر المخطوطات في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية عند إقدام أية جهة حكومية في البلاد العربية، على نشر مخطوط، للاستئناس برأيها في هذا الموضوع ، ولإبلاغ الجهات المعنية بنشر المخطوطات في البلاد العربية أو الأجنبية بذلك ، لتكون على علم وبينه من الأمر ولوضع خطة علمية موحدة على أساس توزيع العمل ، بقيام كل قطر عربي ينشر ما يخصه نشرأ علمياً دقيقاً ، وبذلك تتوحد الجهود العلمية والثقافية العربية في هذا المضمار .

والمطروح الموجود بين أيدينا من تأريخ تطور المعرفة عند المسلمين ، وابتداء اشتغالهم بها في جميع حقولها وأبوابها من علم وأدب وفن وصناعة ، يرينا أن المعنيين بتدوين تأريخ العلوم والآداب والفنون والصناعة كانوا قلائل ، وأنهم لم يتوسعوا في البحث ولم يكتبوا فيه بسعة وإحاطة ، وإن هذا الموضوع لم يكن قد خطر ببالهم إلا بعد مدة من اشتغال

المسلمين بالكتابة والتأليف . فلما شرعوا في التدوين لم يجدوا أمامهم مادة كافية ، ولم يصل الى مسامعهم غير هذا القليل المذنون ، وأكثره مما يحتاج الى نقد وغربلة وتمحيص . وقد أخذ المتأخرون منهم ما وجدوه أمامهم مما قد دون قبلهم ، فسجدوا كما هم ، ولم يتعبوا أنفسهم بالبحث والاستقصاء لإيجاد شيء جديد يضاف الى ما جاء به القدماء .

ولا تجد هذا التقصير في موضوع تدوين العلوم أو الفن أو الصناعة وحده ، بل تجد ذلك حتى في تدوين منشأ العلوم العربية والعلوم الشرعية أيضاً . فأتت اذا رجعت الى كتاب الفهرست لابن النديم ، ومنه من أقدم المراجع المؤلفة في هذا الموضوع ، لا تجد فيه شيئاً ضافياً واضحاً عن كيفية نشوء العلوم العربية وعن مبلغ صلتها بالحركة العلمية عند الجاهليين ، ولا تجد فيه كيفية اعتناء أبي الأسود الدؤلي مثلاً الى وضع قواعد النحو وكيفية تطور النحو ونموه من يوم ظهره الى ساعة وصوله وتدوينه في كتاب حيدويه . ولا تجد فيه كذلك تقدماً لكيفية ظهور علم العروض وسائر العلوم اللسانية والشرعية عند المسلمين .

والواقع أن فهم الناس لتأريخ في ذلك العهد لم يكن على النحو الذي نفهمه عنه نحن في الزمن الحاضر . فقد كان التأريخ في ذلك الوقت تأريخ حوادث ووقائع ، انصرف الى أعمال الخلفاء والملوك والرجال الذين لهم أثر ظاهر في الحياة . أما تأريخ التدوين وكيفية تطور المعرفة وربط بعضها ببعض وارتباط العلماء المتأخرين بالمتقدمين وما أوجده انوارهم من آراء واختراعات ، فلم يكن موضوعاً مهماً بالقياس الى تلك الأيام ، إلى أن ظهرت الحاجة اليه ، فكان ما فقد كثيراً ، وكان الضائع غزيراً . وقد سبب ذلك لأمثالنا الجهل بتأريخ نشوء المعرفة وتطورها بصورة عامة في العصور الأولى للإسلام .

ونحن إذا ما أردنا التحدث عن العلوم ، فلا بد لنا من الابتداء بعلم كان وما زال له صدهاء في حياة الإنسان وفي تطوره ، هو علم الكيمياء . وهو علم اختلطت به في ذلك

البحث العلمي عند العرب المسلمين

العهد السعيدة بالبحث ، والخيال بالعلم . فأجتمع السحر بالتجربة ، واتصل الطمع بالحصول على الثروة والمال بالبحث العلمي المجرد ، بقياساً على ذلك أمبدأ ، إلى أن تغلبت التجارب العلمية فيه على السعيدة ، وفازت المعرفة العلمية على الآراء الخيالية البالية ، فتقي هذا العلم من الشوائب ، وصار علماً بلي علوماً استقلت منه على النعم الممهور في العهد الحاضر .
ويستظهر منه غروع جديدة في المستقبل بالطبع .

وعلم الكيمياء في ذلك العهد علم يرتاده نالهود طمعاً في الحصول على الذهب والمال في الغالب ، وقبلما يحفل به غير هؤلاء . وهو ذو أصول شرقية وغربية ، تغلبت على أصوله الشرقية الطلسمات والسحر والتعاويذ ، وتغلبت على أصوله الغربية النزعة إلى التجربة واستخدام الآلات والأدوات والنار والخواصن و « الفلزات » لتحويل المعادن الخسيسة إلى هذا المعدن النفيس الذهب . محبوب للقلوب . ومعدن الكتب المؤلفة فيه ، من الكتب الثمينة الغالية . كما يُعدُّ المشتغلون به الكيمياء صنعة ذات أخطار وذات أسرار لا يجوز إفشاؤها ولا البوح بها إلا لخاصة الخاصة .

والحديث عن مبدأ هذا العلم عند العرب حديث غير ممكن في الزمن الحاضر ، لسبب واحد بسيط ، هو عدم وجود مادة في أيدينا تمكننا من الوقوف على كيفية نشوئه وظهوره عند الجاهليين والاسلاميين . ولسكنا إذا كنا في هذا الجمل بكيفية ظهور الكيمياء عند العرب وبأبطالها ووجاهتها في تلك الأيام ، فإننا نستطيع أن نأتي بخلاصة موجزة عن رجال اسلاميين ، ذكر في كتاب الفهرست وغيره أنهم كانوا ممن اشتغلوا بالكيمياء ، وبالصناعة كما يدلفون عليها أيتاً .

وبعد ، فإن الحديث عن الكيمياء يدفعنا إلى الابتداء بالتحدث عن ثلاثة أعلام يرتبط كل واحد منهم بهذا العلم ، هـ : خالد بن يزيد بن معاوية ، وجعفر الصادق ، وجابر بن حبان .

أما الأول ، فهو أبو هاشم خالد ابن الخليفة يزيد الأول ثاني الخلفاء الأمويين ، وجنيد معاوية مؤسس الدولة الأموية . فهو من أسرة شريفة حاكمة ، ومن بيت قديم من بيوتات مكة ، عرف بمناسته لبني هاشم في الجاهلية وفي الاسلام . وهو أول من ورد اسمه من العرب المسلمين مقروناً بهذا البحث . وقد نسبت إليه بحوث مدونة وغير مدونة فيه ، بقيت منها تنف واقتباسات في بطون الكتب ، وأشعار في الصنعة يذكر راووها أنها مما نظمه هذا الأمير العالم في علم الكيمياء وفيما يتعلق به .

أما سيرته فكل ما نعرفه منها أنه عاش في كنف والده زهاء عشرين عاماً ، وعاش حتى سنة (٨٥) للهجرة (٧٠٤ م)^(١) ، وأنه لم ينل الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الذي كان لا يكبره في السن إلا ببضع سنين والذي لم يتمكن من الحكم إلا أياماً معدودات بلغت أربعين في رواية ، أو ستين في رواية أخرى^(٢) . توفي بعد ما فأت الخلافة « مروان بن الحكم » ، ثم ابنه من بعد وفاته « عبد الملك » . ولم تعطف على خالد ولم تمل إليه .

ويظهر من الروايات عن وفاة « معاوية بن يزيد بن معاوية » ، أنه كان هو السبب في حرمان أخيه وبنية أخوته وأهل بيته من السفينيين من الخلافة ، إذ رفض أن يعهد بها إلى أحد منهم حينما حضرته الوفاة ، قائلاً : « والله ، ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقده وزرها ، وتتعجلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ؟ اللهم ، إني بريء منها ، متخل عنها ! اللهم ، إني لا أجد نفعاً كأهل الشورى ، فأجعلها إليهم ينصبون من يرونه أهلاً لها » . وهذا مما أثار غضب أمه وأهله عليه وسبب حرمان بني سفينان منها ، وانتقال الخلافة منهم إلى

(١) علم الطائفة : تأريخه عند العرب في القرون الوسطى ، (١٩١١) ، (سر ١٣٢) ،

Brockelmann Supl ., t. S. 106,

(٢) صروج الذهب (٢٠٠ / ٣) . ذكر أنهم معاوية بن يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم .

آل مروان، ومنهم خالد بن يزيد^(١).

ويظهر من بعض الأخبار أن صلات خالد بن يزيد بالخليفة مروان بن الحسك لم تكن على ما يرام، وذلك لاعتقاده أن مرواناً قد اغتصب حقه في الملك، وأنه أخذه منه ظلماً. وفي بعض الأخبار ما يفيد وقوع ملاحاة بين الاثنين، وأن ذلك دنا إلى تأثر أم خالد من زوجها مروان فوضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هي وجواربها حتى مات^(٢).

ولم يرو المؤرخون شيئاً كثيراً عن صلاته بالخليفة عبد الملك بن مروان إلا ما ذكره من أن عبد الملك أرسل إليه حين فكس في ضرب العملة في بلاد المسلمين، وتحويلها من دنانير رومية إلى دنانير عربية، يسأله رأيه في ذلك، فأشار عليه أن يضرب العملة، ويمنع التعامل بدنانير الروم^(٣). وهو خبر يتعارض مع أخبار أخرى أوردتها أهل الأخبار عن ابتداء ضرب العرب للدنانير في العصر الأموي. وهي أقدم منه عهداً لورودها في كتب هي أقدم من السكتب التي اشارت إلى نصيح خالد لعبد الملك في أمر تعريب الدنانير^(٤).

والأما ذكره من قصته مع عبد الملك في شأن أخيه عبد الله بن يزيد بن معاوية والوليد بن عبد الملك، وكان يعيب به ويحتقره ويظهر من ثنايا القصة أن صلاته بالخليفة لم تكن على ما يرام^(٥).

وقد كان خالد كما يبدو من بعض ما أوردته أهل الأخبار عنه معجياً بنفسه، معتدلاً بأهل بيته، على الرغم من خسارته الملك وذهاب الخلافة منه. وقد أدى ذلك إلى وقوعه في

(١) مصدر الذهب : ٢٠/٣ هـ ذكر أهام معاوية بن يزيد بن معاوية هـ.

(٢) الأغانى (١١/١٦ هـ وما بعدها) .

(٣) Karabacek, S. 15. f.

Ruska, S. 11. (٤)

(٥) ابن خلدون (١١٢/٥ هـ وما بعدها) .

«شاكسات مع بعض الناس ، مثل الحجاج ، والى تطاولهم عليه بالقول»^(١) . ولعلمهم كانوا يندفعون في ذلك بإشحاء من مروان ومن ابنه عبد الملك ، للحظ من منزلته ، وإبعاده عن كل تفكير في استعادة الخلافة من آل مروان .

وإذا كان خالد قد أخفق في نيل الخلافة أيام أخيه الضعيف وأيام مروان الطامع في السن ، فقد كان من غير الممكن بالنسبة إليه استلابها من «عبد الملك» ذي الشخصية القوية والبأس الشديد . والظاهر أن خالداً كانت كأخيه ضعيف الإرادة لم تتوفر فيه الصفات التي يجب أن تتوفر في شخص يريد استرجاع ملك ضائع منه مسلوب ، لم يكن في إمكانه تكوين جماعة تلتف حوله لمساعدته في استرجاع حقه في ملك أبيه ، ولم تكن لديه المؤهلات التي يجب أن تتوفر فيمن يريد الحكم والزمامة ، ولهذا قبيع في بيته مفضلاً الانزواء على الاصطدام بآل مروان ، معزياً نفسه بالاستغفال بتنظيم الشعر وقراءة الكتب القديمة ، ولا سيما كتب الكيمياء والطب ، وملازمة المشتغلين بها ، وملازمة بعض أصدقائه الخلفاء ، حتى وافته منيته وهو على هذه الحال .

قال فيه محمد بن اسحاق بن النديم صاحب كتاب الفهرست : «الذي عني باخراج كتب القدماء في الصناعة خالد بن يزيد بن معاوية . وكان خطيباً شاعراً ، فصيحاً حازماً ذا رأي . وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . وكان جواداً ، يقال إنه قيل له : لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصناعة ، فقال خالد : ما أطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني . إني طمعت في الخلافة ، فاخترت دوني ، فلم أجِد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أخرج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة . ويقال ، والله أعلم إنه صبح له عمل الصناعة»^(٢) .

(١) الأمان (١٦ / ٨٦) .

(٢) الفهرست (ص ٩٥) ، طبعة القاهرة .

ومن يدري ؟ فلعله كان يرى في الكيمياء المخرج المؤدي الى استرجاع الخلافة ، والسبيل المؤدي اليها ، بما كان في هذه الصنعة من أسرار اذا وقف الانسان عليها صار في إمكانه تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، والذهب هو السكفيل بالحصول على كل شيء في هذا الكون ، وفي جملة ذلك الخلافة . فسينفق منه على الناس ، وبذلك يمتلكهم ، ويجعلهم في جانبه في استرجاع الخلافة من مغتصبها عبد الملك بن مروان .

وذكر بعض أهل الأخبار أن خالد بن يزيد « هو الذي وضع خبر السفياني ، وكبره ، وأراد أن يكون للناس فيه طمع حين غلبه مروان بن الحكم على الملك ، وتزوج أمه ^(١) » . وهناك من يشك في صحة هذه الرواية ، ويرى أن خبر السفياني خبر ورد بطرق متعددة ومن رواية مختلفين ^(٢) .

ولا ندري بالطبع كم كلفت هذه الصنعة خالد بن يزيد من مال . ولكننا نستطيع أن نقول على كل حال إنها كلفته كثيراً ، وإنه ظل يعمل جاداً ما شاء الله في هذه الصنعة طمعاً في الوصول الى هدفه المنشود ، وإنه كان كلما تراءى له شبح شيء برآق لونه يشبه لون الذهب زاد أمله في الحصول عليه . ونحن نعرف أن هذا الأمل أذلّ كثيراً من الناس ، وذهب بعقل بعض منهم ، حين خاطبوا في الحصول على الثروة والمال والتحكم في المعادن الخسيسة ، تحكم علاء الدين في خاتمه أو في المصباح السحري المنسوب اليه .

والواقع أن اعتقاد القدماء أن في إمكان المتفرس بعلم الكيمياء التوصل الى سرّ تحويل المعادن الخسيسة الى معدن نفيس ، هو الذي جعل أكثر الكيمياءيين على دراسة هذه الصنعة والانصراف اليها ، حتى في هذا العهد فأتانا نجد بعض الناس يقبلون على مطالعة الكتب الكيمائية القديمة ، ويدرسونها ليل نهار ، ويعملون بما يرد فيها من توجيهات للتوصل الى ذلك السرّ : سرّ تحويل القصدير والمعادن الرخيصة الى إكسير النبر .

(١) الأغاني (٨٠/١٦) .

(٢) المصدر نفسه .

وقد ذكر ابن النديم حكاية أخرى عن خالد ، فقال : « كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمي حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه ، وله همة ومحنة للعلوم ، خطر بباله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي . وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة » (١) .

فالذين نقلوا الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية ، هم كما ذكر ابن النديم جماعة من الأجانب الأعاجم ، ممن كانوا بمصر ، كانوا قد اتقنوا العربية وتحدثوا فيها ، كما كانوا قد اتقنوا الصنعة والعلوم الأخرى وتخصصوا فيها . ولم يذكر ابن النديم اسم أحد من هؤلاء النقلة إلا اسم رجل واحد سماه « اصطفن القديم » . وقال فيه : إنه نقل له كتب الصنعة . ويعني بها كتب الكيمياء . واذن يكون « اصطفن القديم » أقدم رجل ورد اسمه على وجه التأكيد وترجم الكتب العلمية من اللغات الى اللسان العربي (٢) .

ولكن من هذا الفيلسوف اليوناني الملقب بالعربية للفصيح بها « اصطفن القديم » ؟ إن علمنا بسيرته جد قليل . لم يرو ابن النديم من خبره ما يوضح سيرته وعمله . لم يذكر متى ولد ومتى توفي ، ولم يلقب بـ « القديم » ، وأين عاش ، وما آثاره ومؤلفاته إن كانت له آثار ومؤلفات وكيف كانت حياته بخالد بن يزيد ؟ لقد أشار ابن النديم في أثناء كلامه على « أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة » الى رجل سماه اصطفن ، وقد ذكره بعد خالد بن يزيد في الترتيب ، وقبل اسم جل آخر سماه « حربي » ، وقد ورد اسم « حربي »

(١) الفهرست (ص ٣٢٨) ، نقل هذه الفقرات كاتب جاذي ، صاحب كشف الخفون عن أسامي الكتاب

والفنون دون أن يشير الى الفهرست ، راجع الجزء الثالث من مجلة « فلوكل » ، المصنعة (٩٠) .

(٢) الفهرست (ص ٣٢٨) ، أسماء النقلة من اللغات الى اللسان العربي ، كشف الخفون (٩٧/٣) ،

« مجلة فلوكل » ،

هذا قبل اسم جابر بن حيان ^(١) . فهل أراد ابن النديم بـ « اصطنع » هذا « اصطنع القديم » ؟

وورود اسم اصطنع بعد اسم خالد بن يزيد ، يدل بالطبع أنه كان من المعاصرين له ، ولما كان هذا الرجل من أصحاب هذه الصناعة ، فلا يستبعد أن يكون هو الذي دعاه ابن النديم بـ « اصطنع القديم » . وقد ذكر ابن النديم بعد انتهاءه من الكلام على خالد بن يزيد وفي أثناء حديثه عن « أسماء الكتب التي ألفها الحكماء » اسم كتاب في الصناعة دعاه « كتاب اصطنع » ^(٢) . لكنه لم يذكر شيئاً عن هذا الكتاب وموضوعاته وعنوانه الحقيقي . فهل يعد هذا الكتاب من صناعة اصطنع المعاصر لخالد بن يزيد ؟ قد يجوز أن يكون من مؤلفاته أو من منقولاته . لكنني لا أستطيع أن أقول ذلك جازماً ، فهناك جملة مؤلفين عرفوا بـ « اصطنع » أو « اصطنعان » ، ولهذا أرى التريث والتروي في إبداء رأيي قاطع في نسبة هذا الكتاب .

وقد ورد في بعض رسائل الكيمياء المنسوبة الى خالد بن يزيد أن خالداً راجع كثيراً من كتب الكيمياء كما راجع رجال الصناعة ، ولكنه لم يتمكن من فهم الصناعة والوقوف على أسرار تلك الكتب ، حتى اهتدى الى رجل نصراني اسمه « أستفانس الراهب » ، فزاره ، واتصل به ، وكنم أمره عنه ، ولم يبع له باسمه ، الى أن تعلم الصناعة منه ، ونال منه « معاني العوز » ، فكشف له عنده عن حقيقته ^(٣) . فمن هذا الراهب المشتغل بالصناعة والكيمياء ؟

لقد ذكر ابن النديم ، في أثناء كلامه على علماء الصناعة والكيمياء ، اسم رجل دعاه

(١) القهرست (ص ٤٦٢) .

(٢) القهرست (ص ٤٩٨) .

H. E. Stapleton and R. F. Aze, an alchemical Compilation of the thirteenth (+) Century, A. D. Memoirs, AS. Soc, Bengal, 1910, Vol., III, No. 2 P. 86, Ruska, S. 10

« اصطفى الرهب » ، يقال إنه « كان بالموصل في عمر يقال له ميخائيل ، وكان يحكى عنه أنه عمل الكيمياء . فلما مات ، ظهرت كتبه بالموصل ، فرأيت منه شيئاً . وهي : كتاب الرشد ، كتاب ما حدثنا ، الباب الأعظم ، كتاب الأدعية والقرابين التي تستعمل قبل صناعة الكيمياء ، كتاب الاختيار النجومي للصناعة ، كتاب التعليقات ، كتاب الأوقات والأزمنة » (١) .

ولم يذكر ابن النديم الزمن الذي عاش فيه هذا الرهب ، ولهذا فليس في وسعنا أن نزعم أنه هو الشخص الذي تعلم منه خالد صناعة الكيمياء . هذا ، وذكر ابن النديم رجلاً آخر قال إنه « من القلاصة أهل الصناعة الذين شهبوا بها ، وألفوا فيها كتباً » . وقد دعاه « اسطافانوس الرومي » . وذكر أنه كان من أهل الاسكندرية ، وله من الكتب على ما ذكر في بعض رسائله ألف كتاب ورسالة ، ولكل كتاب ورسالة اسم يسمى بها (٢) . ولكنه لم يذكر أيضاً زمن هذا المؤلف الفيلسوف الكيمياء ، ولهذا فليس في استطاعتنا أن نتحدث عن وجود صلة له بخالد بن يزيد .

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى احتمال أن يكون « اسطافانوس » أو « اصطفى الرهب » المذكور هو « استفانوس Staphanous » أحد الباحثين في الكيمياء والطب في أيام القيصر « هرقل Herakleios » . وله بحوث في الموضوعين المذكورين وشروح للكتب المتقدمة التي وضعها علماء اليونان (٣) . أما أنا فأرى صعوبة تصور ذلك ، لفارق الزمن بين الاثنين ، ووجوب تحيل عمر طويل للعالم اليوناني ليكون في الامكان اتصال خالد بن يزيد به .

(١) القهرست (ص ١٠٦) .

(٢) القهرست (ص ١٩٦) .

(٣) Ruska. Arabische Alchemisten, S. 50 ff .

ويفهم مما ذكره ابن النديم عن خالد بن يزيد أن خالداً كان قد ألف عدة كتب ورسائل في الصنعة ، وأنه كان قد نظم شمرأ كثيراً في هذا المعنى . وقال إنه رأى منه نحو خمس مئة ورقة ، وأنه رأى من كتبه : كتاب الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة ^(١) . وذكر صاحب كتاب كشف الظنون كتاباً سماه « سر البديع في فلك رمز المنيع في علم الكاف » ، زعم أنه لخالد ، ويظهر أنه وقف عليه كما يفهم ذلك من قوله : « أوله اعلم أيها الأخ الخ ... » ^(٢) كما أنه ذكر له كتاباً آخر سماه « فردوس المسكة في علم الكيمياء » ، وقال في وصفه : إنه « منظومة في قوافي مختلفة ، وعدد أبياتها أثنان وثلاث مئة وخمسة عشر بيتاً ، وإن أوله : الحمد لله الواحد المزد الذي له الصخر والمجد . الخ :

يا طلب لمناجسة الكيمياء منطقاً حقاً بغير خفاء ^(٣) »
ويظهر أنه من هذا الكتاب كان نقل الأبيات التي نجدها في كتب الصنعة ، وأنه هو كتاب « الفردوس » الذي أشار إليه الجليلي كما سنرى فيما بعد .
وقد نسب صاحب كشف الظنون له كتاباً آخر دعاه « كتاب الرحمة » ، وصفه فقال إنه يشتمل على أربعة فصول في معرفة الحجر وفي الأوزان وفي التدبير وفي الخواص ^(٤) . وأشار صاحب كشف الظنون في باب الميم إلى مقالة لخالد بن يزيد في الكيمياء ، قال فيها إنها رسالة عظيمة في هذا الشأن ^(٥) ، ولم يذكر من أمرها شيئاً .

(١) الفهرست (ص ١٧) وما بعده .

(٢) كشف الظنون (١٠٢٢) .

(٣) كذا ورد كشف الظنون (١٠٢٢) .

(٤) « ولخالد بن يزيد كتاب الرحمة أيضاً ، يشتمل على أربعة فصول في معرفة الحجر ، في الأوزان ،

في التدبير ، في الخواص » ، كشف الظنون (١٠٢٢) .

(٥) كشف الظنون (١٠٢٢) .

وقد ورد في بعض المؤلفات أن أحد وزراء مصر وجد سنة ٤٣٥ هـ في خزانة الكتب بالقاهرة كرة تمثل السماء مصنوعة من النحاس من عمل بطليموس ، وقد كتب عليها : « سُحلت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية ^(١) » .

وقد ذكر « الجلكي » ، عز الدين أيمن بن علي بن أيمن ^(٢) ، في كتابه « غاية السرور في شرح ديوان الشذور » أن خالداً « كان مشغولاً بالحكمة والفلسفة في حياة جده معاوية ، وأستمر على ذلك مدة أيام أبيه ، وطلب للخلافة بعد موت أبيه ، فأمتنع ووُلي الخلافة أخوه معاوية ومحب خالد مسلمة بن عبد الملك بن مروان . وتجهز معه إلى بلاد الروم ، وحضر حصار القسطنطينية إلى أن فتحت صلحاً ، وظفر منها بكتب كثيرة من كتب اليونان . واشتغل في حداثته سنة على الراهب مريانس . كان في دير خارج دمشق وبأشر عنده العمل بعد العلم مدة عشر سنين من خلافة جده معاوية . وتم وصوله واتصاله في خلافة أبيه يزيد » .

وذكر أيضاً أن خالداً لما توفي ، « كان سبباً لضعف شوكة بني أمية » ، وأخذ حاكمهم من بعده في النقص ، مع أنه عمل بدمشق طلبات كثيرة في الجامع الأموي وحول الجامع وفي سور دمشق وبعضها باق إلى الآن ، تغسده الله بالرحمة والرضوان . وبسببه جلبت الكتب من بلاد الروم إلى الشام الجليلة الأولى في الفلسفة والحكمة والطب والهندسة والنجوم والحيل والأعمال وجرّ الانتقال وغير ذلك . وصنف هو كتباً كثيرة في عدة علوم ، وأعلى

(١) تاريخ المسكوك لابن القملي (ص ١١٠) طبعة أوربة ، ، غاليليو علم الفلك : تأريخه عند العرب في القرون الوسطى (١٣٧) .

(٢) « الجلكي » : علي بن محمد بن أيمن الجلكي ، عز الدين ، ، التوفيق بعد سنة ٣٤٢ للهجرة ، ، الأعلام (١٠٠٢/٥) ، مدينة المعارف (١/٧٢٢) ، القرينة (١/٣٥٥) ، (٣/٦٩ و ٨٩) ،

Brockelmann. II, 138, Suppl., 427. f. II, 121, 1035, III, 597.

وزأوج لطيف الماء إن كنت عالماً بلين هواء كامن في المناطق^(١)
وفي أثناء استشهاده « العراقي » بأقوال الحكماء في كيفية الابتداء ، قبل تسمي العمل
الأول وتسمي العمل الثاني ، أورد بيتاً لخالد بن يزيد هو :

أول هذا العلم تكليس الحجر بحر نارٍ دونها نار سقر^(٢)

ثم أورد له شعراً في تأفية الهمزة ، ذكره في الفصل الرابع في الاستشهاد على كيفية
الابتداء في القسم الأول من العمل الأول ، وهذا مطلعه :

يا باحثاً عن صنعة البراء ودقيق ما صنعوا من الأشياء

مميز ، فديتك ، ما أقول ، ولا تكن كالجاهل الجوّال في عجباء^(٣)

وأورد له أشعاراً أخرى في المواضع الباقية من الكتاب ، كلها على هذا النمط من
تعليم الصنعة وشرحها وفي كيفية العمل بها^(٤) .

وأورد « العراقي » نبذاً من أجوبة رجل من أصحاب الصنعة اسمه « مريانس » عن
أسئلة وجهها إليه خالد بن يزيد ، يظهر منها أن مريانس كان مرجعاً في علم الكيمياء يرجع
خالد إليه ، وأنه كان على صلة وثيقة بالأمير الأموي . وفي جملة ما أوردته جوابه عن سؤال
خالد في موضوع « اكسير الحرة » و « الاكسير الأحمر » ، فقال : « وقد قال سائر
الحكماء : إنه ينسو بلا نهاية ، ويزيد في صيفه بلا نهاية ، ولهذا قالوا : إن المثقال منه
علاء ما بين الخافقين ، ولهذا قال مريانس الحكيم لخالد بن يزيد : أعلم ، أيها الأمير ، أنه
يزيد بلا نهاية كمية وصيغاً »^(٥) .

(١) كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب (ص ٣٤) ، طبعة باريس ١٩٢٣ .

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٩) .

(٣) كذلك (ص ٢٩ وما بعدها) .

(٤) كذلك (الصفحات ٣٠ ، ٣١ وما بعدها ، ٤٧ ، ٤٩ وما بعدها) .

(٥) العلم المكتسب (ص ٥٥) .

وفي الفصل الذي عقده « العراقي » على وحدة الماهية المتقوم منها صورة الأكسير وتعريفها ، اقتبس أجوبة لهذا الحكميم عن أسئلة سأها خالد ، فقال : « وقال مريانس لخالد بن يزيد : أما ما سألت عنه من الأصل أمن شيء واحد أم من أشياء شتى ؟ فإن ذلك شيء واحد وجوهر واحد ونوع واحد ، ومنه وبه ، لا يزداد عليه ولا ينقص منه » ^(١) . وأورد « العراقي » سؤالاً لخالد في موضوع العلاج الثاني وجهه لأستاذه « مريانس » ، وذلك في « الفصل الثاني : في الاستشهاد من أقوال الحكماء على القسم الثاني من الفصل الثاني » . وأورد معه جواب « مريانس » عليه ^(٢) . وهو آخر ما أوردته هذا المؤلف من مقتنيات في الكيمياء لهذين الرجلين .

والأسئلة والأجوبة المذكورة تشير الى وجود مراسلات وصلة بين خالد و « مريانس » ، وتشير الى أن خالداً كان يرجع اليه في هذا الموضوع ، وأنه كان في جملة من تعلم منهم علم هذه الصنعة . ونجد في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان إشارة اليه في ترجمته لخالد بن يزيد . فقد ذكر المؤلف أن خالداً « أخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الراهب الرومي ، وله فيها ثلاث رسائل . تضمنت إحداهن ما جرى له مع « مريانس المذكور » وصورة تعلمه منه ، والرموز التي أشار إليها » ^(٣) . فيظهر من إشارة ابن خلكان الى هذا الرجل أنه كان من رجال الدين ، وأنه كان راهباً ، وأنه كان من الروم . وقد أشار كاتب جلبي الى وقوفه على رسالة في الصنعة والكيمياء ، قال إنها رسالة عظيمة في هذا الشأن ، ودعاها « مقالة مريانس الراهب » في الكيمياء . ولم يتحدث بشيء عن مضامينها . وذكر بعدها أنه كان خالد بن يزيد مقالة مماثلة في الكيمياء ^(٤) .

(١) المصدر نفسه (ص ٢٨ وما بعدها) .

(٢) المصدر للكتيب (ص ٤٨ وما بعدها) .

(٣) وفيات الأعيان (ج ١ / ١٢٩) وما بعدها ، طبعة ميس البابي الحلبي .

(٤) كتف الظنون (١ / ٢٠٣) .

وذكر في بعض الكتب رجل آخر قيل إن خالداً أخذ منه العلم . وذلك هو يحيى النحوي المعروف بالطريق ، وكان من الدارسين للفلسفة والطب ومن المؤلفين . وقد ذكرت أن خالداً أخذ الطب منه ^(١) .

ويحيى النحوي المعروف بـ « Joannes Grammaticus » عند الغربيين وبـ « Joannes Philoponus » كذلك هو من رجال القرن السادس للميلاد ^(٢) . وقد ألف وكتب باليونانية ، ونقل بعض مؤلفاته إلى العربية . وقد ذكر ابن النديم في الفهرست وسمى مؤلفاته . وقد توفي خالد بن يزيد سنة ٨٥ للهجرة (٧٠٤ م) ، فلا يمكن أن يكون ممن أخذ العلم عن « يحيى النحوي » ومن اتصل به . ولا يمكن أن يكون « يحيى » من أدرك الفتح الإسلامي لمصر ، وبلغ أيام عمرو بن العاص كما ذهب إلى ذلك بعض الموارد العربية ^(٣) . وقد أخطأت هذه الموارد في تعيين الشخص ، ولم تصب في اختيار الرجل الصحيح ، وذهب الأب لويس شيخو إلى أن هذا الرجل المتقدم هو « يوحنا النقيوي أو النحوي » أسقف « نحو » ، وهو صاحب كتاب في التاريخ ألفه في اليونانية ، ضاع أصله ، وبقيت ترجمته بالحبشية . وقد تعرض فيه لوصف فتح العرب لمصر ، وقد كان بمصر أيام عبدالعزیز ابن مروان ^(٤) . وأن الأمر التبس على المؤلفين العرب . فظنوا أن « يحيى النحوي » هو « يحيى النحوي » المؤلف المشهور ^(٥) . ويحتمل في نظري أن يكون هو الشخص الذي

(١) كتاب تسمية مروان الحسكة ، لاهور ١٣٠١ هـ (١٩١٤ م) ، تأريخ حكماء الاسلام ، لعلمه ندين البيهقي (تحقيق محمد كرد علي) (ص ٤٠) .

(٢) لويس شيخو اليسوعي : كتاب المخطوطات العربية لسكنية النصرانية ، بيروت ١٩٢١ (ص ١١٣) الشرق : المجلد السادس عشر (١٩١٣) (ص ٤٧ وما بعدها) .

(٣) الفهرست (ص ٢٥١) : طبعة أوربية ، ص ٣٥٦ ، طبعة مصر ، الشرق : المجلد السادس عشر (١٩١٣) (ص ٤٧ وما بعدها) ، ابن النقفلي (ص ٣٠١) ، تأريخ ابن العبري (ص ١٢٥) .

(٤) الشرق : المجلد ١٦ (١٩١٣) (ص ٥٢ وما بعدها) .

(٥) المصدر المذكور .

أشار إليه « البيهقي » ، ويحتمل أن يكون غيره ، كأن يكون شخصاً آخر اشتهر في ذلك العهد باسم « يحيى » أي « يوحنا » ، وقد عرف ببصوته في الطب والكيمياء . وظن الأخباريون خطأ أنه « يحيى النحوي » ، وقد وقع أهل الأخبار في كثير من أمثال هذه الأغلاط من جرّاء التشابه في الأسماء .

وإذا استثنينا الأشعار والمقتبسات التي ذكرتها ، المنسوبة إلى « خالد » ، وبعض الرسائل المأثورة باللاتينية ، فإننا لا نملك حتى الآن أثراً مطبوعاً في أي علم من العلوم الثلاثة : الكيمياء والطب والنجوم التي اشتهر وعرف بها . كذلك لا نملك اليوم ترجمة ما لكتاب من الكتب التي ذكر العلماء أن المترجمين كانوا قد ترجموها له تلبيةً لطلبه . ولو حصل العلماء على أحدها لكانت من أقدم الكتب المعربة في العلوم عند العرب ولا شك . إن اشتغال خالد بطلب الكيمياء لم يقابل بالرضا في المجتمع في ذلك العهد . فلم يكن من المناسب في نظره اشتغال العربي الشريف بأمثال هذه الصنعة التي لا تليق إلا بالهجناء والعامّة والموالي . ولذلك عتبر باشتغاله بها وعيب عليها كالذي ذكره من أن محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص اختصم يوماً مع خالد ، وذلك بسبب قول خالد له : « ما يقدم علينا أحد من أهل الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة » . فظن محمد أنه يعرض به ، فقال له : « وما يمنعهم من ذلك وقد قدم قوم من أهل المدينة على النواضح ، فشكحوا أمك وسلبوك ملكك ، وفرغوك لطلب الحديث وقراءة الكتب وعمل الكيمياء الذي لا تقدر عليه ^(١) » . وكالذي ذكره « الأصماني » مؤلف الأغاني عنه قوله : « وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى بذلك عمره ، وأسقط نفسه ^(٢) » .

(١) الأغاني (١٦ / ٥٦)

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٤)

وقد شك ابن خلدون في اشتغال خالد بن يزيد بالكيمياء ، وخطأ من يزعم أن خالد بن يزيد كان من رجال الكيمياء ، بل ذهب إلى القول بوجود خالد آخر غيره ، ليوفق بين رأيه هذا في نبي الصناعة عن خالد ، والأخبار المتواترة عن اشتغاله في الكيمياء ، وحجة ابن خلدون في النفي أن « خالداً من الجليل للعربي والبدعوة إليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة . فكيف بصناعة غريبة المنحى ، مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمرجتها . وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيين والفقهاء ، لم تظهر بعد ولم تترجم . اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد (؟) آخر من أهل المذارك الصناعية تشبه باسمه ، فممكن ^(١) » .

وحجة ابن خلدون هذه ، لا تقوم على دليل تاريخي مقبول مقنع في نفي الكيمياء والعلوم الأخرى عن خالد ، وقد قامت ورسخت لدى ابن خلدون من نظريته التي هيمنت عليه ، من أن العرب كانوا قوماً أعراباً ، والأعرابي - حسب رأيه - بدائي بطبعه يكره العلم والصناعة . ولهذا لم يزل إليها عند ظهور دولة المسلمين إلا الأناجيم والموالي . أما العرب انخلص - حسب رأيه أيضاً - فقد انصرفوا بحكم طبيعتهم وغريزتهم إلى الملك والسلطان . وهي نظرية لا مجال لمناقشتها في هذا المكان : لا تقوم بالشعاع إلا على رأي لم ينبعث عن تتبع وتحليل للتأريخ ، وإنما عن ملاحظات عامة صورت المؤلف تلك الصورة ، فحاول تفسير تأريخ العرب بموجبه ، وبحسب هذا الرأي .

وبعد ، فقد رأينا أن من الصعب التثبت من مقدار احاطة خالد بالكيمياء ومن هذا المنسوب إليه شعراً أو نثراً في هذه الصناعة ^(٢) . ولكن شيئاً مهماً جداً يمكن استخراجه من هذا المروي عنه ، وهو مهم بالنسبة لهذا اليوم ، هو اشتغال خالد نفسه بصورة عملية

(١) انظر مقدمة ابن خلدون : ٢٤٥ ، طبعة بولاق .

(٢) راجع : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، تحرير الدكتور عبد الحليم النجسار ،

(٢٦٢/١ وما بعدها) .

البحث العلمي عند العرب المسلمين

في صناعة الكيمياء واجراؤ تجارب فيها ، وتبيئته الأدوات والمواد اللازمة للاشتغال ، على أمل تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة . وهذا العمل هو عمل مخبري ، تجري فيه تجارب للتوصل الى الغاية التي وضعها صاحب هذه التجارب في ذهنه عنها ، وهو عمل يستحق عليه كل تقدير . ونحن بأسف ، لأننا لا نملك شيئاً مدوناً يروي لنا بصورة تفصيلية أعمال خالد في الصناعة وكيفية اشتغاله للتوصل على رأيه الى صناعة إكسير الذهب ، وهو غاية خالد من كل هذه الصناعة

نعم شيء آخر نستخلصه من ذلك ، هو أن أميراً عربياً كان قد أمر بترجمة الكتب في العلوم وبنقلها من اليونانية الى العربية قبل بدء الترجمة في عهد دولة بني العباس بأمد طويل . وأن حركة التعريب والترجمة كانت قد بدأت في الواقع قبل أيام الدولة العباسية ، ولكن الأيام لم تبق من المعربات شيئاً ، كما أنها قذت على أكثر معالم التأريخ في عهد الأمويين ، وقد يكون ذلك بسبب سبب سياسي . ومن هنا صار جهلنا بأكثر نواحي تأريخ تلك الأيام . أما الرجل الثاني الذي يرد اسمه مقروناً بالكيمياء وعلوم أخرى عديدة أكثرها في الكشف عن الأسرار والمغيبات ، فهو جعفر الصادق الإمام السادس عند أكثر فرق الشيعة المتوفى سنة « ١٠٨ » للهجرة . وهو ابن الإمام محمد الباقر المنسوب اليه كتاب في تفسير القرآن ، ذكر ابن النديم أنه رواية أبي الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية ^(١) .

وآسم الامام الصادق من أشهر الأئمة الاثني عشر وروداً في الكتب وفي الحركة العلمية في الاسلام . ورواية الحديث والفقه عند الشيعة اليه ترجع في الغالب وعنده

(١) الفهرست (ص ٥٠) ، تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن ، المعارف (١١٠) ، تأريخ كزيفة (٢٠٥) ، روضة الأئمة (١١٠) ، سفينة الأولياء (٢٥) ، تأريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢٠٩/١) .

تقف . وله عدد كبير من الرواة ، تتلمذوا عليه . وأخذوا العلم منه ، ولهم في الجدل والكلام شهرة ، ولهم بحوث ومؤلفات في علوم أخرى . منهم جابر بن حيان الذي ذكر ابن خلكان أنه كان من تلامذة جعفر الصادق ، وأن له كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خمس مئة رسالة ^(١) .

وقد رَجَعَ أَكْثَرُ الْمُشْتَغَلِينَ (في صناعة الكيمياء والسيماياء والجفر والقال والجفر وعلم الرمل وعلم الاختلاج ^(٢)) وأمثالها من الصناعات القائمة على نظرية هتاك الحجب والأستار وكشف المغيبات) علمهم بالصناعات المذكورة إلى الإمام الصادق . فتجدهم يشيرون في رسائلهم إليه ، وينسبون وقوفه على تلك الأسرار . ونحن لا نكاد نجده في ذلك شخصاً بنفس اسمه اسمه .

وقد وصلت إلينا أسماء رسائل وكتب منسوبة إلى جعفر الصادق لم يذكر إليها ابن النديم ولا غيره من قدماء أهل التاريخ والأخبار . ومن بينها كتاب نشره المستشرق « رسكا » Julius Raska . بعنوان « كتاب رسالة جعفر الصادق في علم الصناعة والحجر المكرم » ، نشره بطريقة « الحفر » مشفوعاً بترجمته بالألمانية ^(٣) . وقد افتحه بعد البسملة بقوله : « رسالة الوصايا والفصول لسيدنا الإمام جعفر الصادق لولده رضي الله عنه » ، مما يدل على أن عنوان الكتاب الأصلي هو هذا العنوان .

(١) وفيات الأعيان (٤ / ١٧٦) وبإدعاء « طبعة مجلس البان » .

(٢) « علم الاختلاج » وهو من فروع علم الفراسة . قال المولى أبو الخير : هو علم باحث عن كيفية دلاء اختلاج أعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم على الأحوال التي ستقر عليه وأحواله ونفسه والفرص منسبه ظاهراً كشف الظنون (١ / ١٩٣) ، « اختلاج الأعضاء » ، تاريخ الأدب العربي (١ / ٢٦٠) ،

Diels. Zur lit. des Gliederzuckens, 1908. S. 58. ff.

Julius Raska, Arabische alchemisten, (a) Far alsadiq der sechste Imam, (٢)

H, Heidelberg 1924

البحث العلمي عند العرب المسلمين

لنكن لغة الكتاب وأسلوب إنشائه وطريقة عرضه تدل على أنه من الكتب المتأخرة ، وأن صاحبه ممن عاشوا بعد الصادق بأمد طويل . وفي الكتاب نفسه دليل على تأنيده نسبته إلى الصادق ، إذ ورد في الصفحة (١٦) من المخطوطة اسم ذي النون المصري ، ونص ذلك : « وقد كان ذوالنون رحمه الله وقف على هذا التدبير وعمله . لا شك في ذلك . وكان زاهداً عابداً . وكان له تلامذة كثيرة وأتباع من الزهاد والعباد غير قليل . وكان يقوت بأقواتهم ويجزي عليهم مما أفاء الله عليه من هذا العلم » ^(١) . وكانت وفاة ذي النون في سنة ٢٤٩ للهجرة (٨٦١ م) ، أي بعد وفاة الإمام جعفر الصادق بحوالي قرن ^(٢) .

وذكر الخلاج خليفة في كشف الظنون كتاباً له : هي كتاب تقسيم الرؤيا ^(٣) ، والجامعة في الجفر ^(٤) ، وكتاب في علم الحروف والأسماء دعاه خافية جعفر الصادق ^(٥) ، وآخر في التفسير على طريقة أهل التصوف ، استفاد منه بعض المفسرين مثل أبي العباس بن عطاء الذي قيل أنه أخذ عن جعفر ^(٦) ، ورسائل لم يذكر عنها شيئاً دعاه رسائل جعفر الصادق ^(٧) .

وقد ذكر بروكلمان كتاباً أخرى منسوبة إليه ، مثل كتاب مصباح الشريعة ومفتاح

(١) الصفحة (١٦ وما بعدها) .

(٢) فهرست (٥٠٣ وما بعدها) ، تاريخ ابن عساكر (٢٧١/٥ وما بعدها) .

Brockelmann, I, 198, Suppl., I, S. 553.

(٣) كشف الظنون (٢٩١/٢) .

(٤) المصدر نفسه (٥٨١/٢ ، ٦٠٢) ، وكتاب الجفر للإمام جعفر الصادق ، كشف الظنون (٧٠/٥) .

(٥) خافية في علم الحروف . . . والإمام جعفر الصادق بن محمد الجبلي المتوفى سنة ١١٨ . ذكر البساطي أنه جعل فيه الباب الكبير ، كشف الظنون (٥٢/٢ ، ١٢٨) .

(٦) كذلك (٧٩/٢) ، (١١١/١) .

(٧) كشف الظنون (١٠٩/٢) .

الخطيئة ، وكتاب التفسير رواية ذي النون المصري ، ورواية محمد بن إبراهيم بن جعفر النعمان القزويني سنة (٢٢٨ هـ) من تلامذة السكيني ، وكتاب هياكل النور وتوجد نسخة منه في المكتبة الأهلية ببغداد ، وكتاب منافع سور القرآن وتوجد نسخة منه في « كوتا » وأخرى في « الغاتيكاز » ، وكتاب بحر الأنساب (١) .

وذكر ابن النديم رسالة دعاها كتاب الهداية ، قال أن بعض الناس ينسبونها إلى الإمام الصادق ، وهذا محال . وهي رسالة لا يعرف مؤلفها (٢) . وهناك رسائل وكتب أخرى تنسب إليه ، وهي لا يمكن أن تكون منه .

والحديث عن سيرة جعفر الصادق ، وعن أسناده تلامذته ، ومن أخذ منه ، وعن المؤلفات والأحاديث المنسوبة إليه ، يخرجنا عن صلب موضوعنا هذا ، وهو البحث العلمي عند العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتحدث عنه هنا إلا بالمقدار الذي تقع له جهود هذا الموضوع . ولهذا أجتري بهذا القدر ، وقد أبحث فيه في فرصة أخرى .

ولا بد لي هنا من أن أشير إلى إمام آخر من أئمة الشيعة الاثني عشر ، قيل إن له مؤلفاً في العلوم ، هو الإمام علي بن موسى الرضا ، معاصر الخليفة المأمون ، والمتوفى بخراسان من إيران المعروفة الآن باسم مشهد . فقد نسب له مؤلف في الطب اسمه الرسالة الذهبية في الطب ، ومنه نسخة في خزانة كتب الأحمدي بتونس كما جاء ذلك في مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية (٣) .

وأما جابر بن حيان ، فإنه أبو موسى أو أبو عبد الله كما في بعض المراجع جابر بن

(١) Brockelmann, Supp., I, P. 104, تاريخ الأدب العربي (٢٦٠ / ١) .

(٢) الطهرستاني (الصفحة ٤٤١) ، وكتاب الهداية ، تاريخ الأدب العربي (٢٦٠ / ١) .

بحر الأنوار (١٢ / ٢) .

(٣) م. ٥ / ج ١ / ٢١٦ .

حيان بن عبد الله المعروف بالكوفي وبالصوفي . وهو من الشخصيات الغريبة التي تحدث الناس عنها كثيراً . وقد تحدث عنه ابن النديم فقال : « واختلف الناس في أمره ، فقالت الشيعة إنه من كبارهم وأحد الأيواب ، وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق ، رضي الله عنه ، وكان من أهل الكوفة . وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم وأنه في المنطق والفلسفة مصنفات ، وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرئاسة انتهت إليه في عصره وأن أمره كان مكتوماً ، وزعموا أنه كان يتنقل في البلدان لا يستقر به بلد خوفاً من السلطان على نفسه . وقيل إنه كان في جملة البرامكة ومنقطعاً إليها ومتحققاً بجعفر ابن يحيى ، فمن زعم هذا قال إنه عنى بسيد جعفر هو البرمكي ، وقالت الشيعة إنما عنى جعفر الصادق ، وحدتني بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أنه كان ينزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب ، وقال لي هذا الرجل : إن جابراً كان أكثر مقامه بالكوفة ، وبها كان يدبر الإكسير لصحة هواها . ولما أصيب بالسكفة الأزج الذي وجد فيه هاون ذهب فيه نحو مئتي رطل ، ذكر هذا الرجل أن الموضع الذي أصيب ذلك فيه كان دار جابر بن حيان ، فانه لم يصب في ذلك الأزج غير الهاون فقط . وموضع قد بُني للجل والعقد . هذا في أيام عز الدولة بن معز الدولة . وقال لي أبو اسبكتكين دستاردار : انه هو الذي خرج ليتسلم ذلك ، وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الورافين : إن هذا الرجل ، يعني جابراً ، لا أصل له ولا حقيقة .

وبعضهم قال إنه ما صنف وإن كان له حقيقة إلا كتاب الرحمة ، وإن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها ، وأنا أقول إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتمتع فيصنف كتاباً يحتوي على ألني ورقة ، يتمتع فريحته وفكره بإخراجه ، ويتمتع يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً وإما معدوماً ، ضرب من الجهل . وإن ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى بساعة واحدة بالعلم . وأي فائدة في هذا ، وأي فائدة ؟ والرجل له

حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر ، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة ، أنا أوردتها في مواضعها ، وكتب في معارف شتى من العلوم ، وقد ذكرتها في مواضعها من الكتاب . وقد قيل إن أصله من خراسان . وازاري يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة : قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان ^(١) .

وقد اختلف أهل الأخبار في نسبته : فنسبه بعضهم إلى الأزدي ، ونسبه بعضهم إلى طوس ، فقال عنه الطوسي ، وجعله بعضهم من طرسوس ، فقال الطرسوسي ، وجعله أحدهم من حران فقال عنه الحراني ، وجعل أصله من الصابئة ، وذكر أنه كان صابئياً ثم أسلم ، وتزهد ونصوف . كما نسب بعضهم إلى الكوفة . فقال عنه جابر بن حيان الكوفي ^(٢) . ولم يشسر أحد إلى سنة ولادته . أما سنة وفاته ، فهو موضع شك . وقد ذكر في بعض الروايات أنها كانت سنة مئتين للهجرة في بعض المزارد ^(٣) . وذكر في رواية أخرى أنها كانت قبلها ، وأنها كانت سنة ١٦٠ هـ ^(٤) . وذكر أنه أخذ العلم عن خالد بن يزيد وعن جعفر الصادق ^(٥) .

وذكر ابن النديم نقلاً عن بعض الثقات ممن تعاملوا بالصنعة أن جابراً كان أكثر مقامه

(١) التمهيد (ص ٢٩٩ وما بعدها) .

(٢) جابر بن حيان الطرسوسي ، الطرسوسي ، المذوق سنة ١٠١٠ هـ ، كشف الظنون (ص ٣٤ / ٤) .

(٣) ، كتاب المذرات الذهبية في تراجم الأئمة الأئمة عند الإمامية ، تأليف شمس الدين محمد بن طولون ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، (جامع دار صادر) بيروت ١٩٥٥ (الطبعة ٤٤) .

Ency. Of Islam. I, P. 987.

(٤) الأعلام (٩١ / ٤) .

(٥) كشف الظنون (٣٤ / ٤ ، ٥٩ ، ٦٠) ومواضع أخرى .

(٦) جابر بن حيان الصوفي من تلامذة خالد ، كشف الظنون (٢٤٠ / ٤) .

Ency. Of Islam, I, P. 987

بالكوفة ، وأنه كان ينزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب ، « وبها كان يدبر الأكسير لصحة هائبا ، ولما أصيب بالكوفة الأزج الذي وجد فيه هالون ذهب فيه نحو مئتي رطل ، ذكر هذا الرجل أن الموضع الذي أصيب فيه ذلك كان دار جابر بن حيسان ، فإنه لم يصب في ذلك الأزج غير الهالون فقط ، وموضع قد بنى للخل والعقد ، هذا في أيام عز الدولة بن معز الدولة . وقال في أبو إسبكتكين دستاردار : أنه هو الذي خرج ليتسلم ذلك » (١) .

ومعارفنا عن جابر جند قليلة ومشوشة . وليس هذا شأننا وحدها في القرن العشرين ، بل هو كذلك شأن من تقدم علينا بمئات من السنين . وقد أوردت لك نص ما كتبه ابن التديم عنه ، وما ذكره من شك بعض المعاصرين لابن التديم ، وبعض المتقدمين عليه في وجود جابر ، وفي صحة نسبة تلك الرسائل والكتب إليه ما ذكره منها وما لم يذكره ، وكيف أنه خالفهم في ذلك وسفه رأيهم في انكار وجود ذلك الرجل . وإذا كان هذا حال الناس في أمر جابر في ذلك العهد ، فكيف يكون حالنا ونحن اليوم في القرن العشرين ؟ أما الشقاء جابر بن خالد بن يزيد ، فذلك أمر لا يمكن وقوعه ، فقد كان جابر من المنقطعين للبرامكة ومن المتصلين بهم ولا سيما جعفر بن يحيى البرمكي . وقد ألف جملة مؤلفات لهم ، رسمها باسمهم ، وقد توفي خالد بن يزيد حوالي سنة أربع وثمانين للهجرة في أكثر الروايات . وفي سنة تسعين للهجرة في أبعد الروايات (٢) . وقد اشتهر أمر البرامكة في أيام الرشيد ، فلو فرضنا أن عمر جابر كان قد بلغ المئة عام ، وأنه أمرك أيام خالد بن يزيد بالفعل ، فيجب أن يكون طفلاً عند ذلك ، ولا يعقل لطفل أخذ العلم عن خالد وهو في هذا العمر .

وأما اتصاله بجعفر الصادق وأخذه العلم منه ، ففي الكتب المنسوبة إلى جابر اشارات

(١) الفهرست (ص ١٩٩) .

(٢) الأملام (٣٠٧/٢) .

عديدة إلى ذلك . وقد ذكر ذلك أيضاً كثير من المؤرخين من الشيعة ومن غيرهم . وعند
المشتغلون بالصناعة وهوأة السيمياء والفلسفات والعلوم السريّة جابر الطائفة الموصلة بين رجال
هذه العلوم وجعفر الصادق الذي يعدّ المرجع الأكبر والأهمّ فيها . فإذا ذكرناه قائلوا عن
جابر عن جعفر الصادق أو جابر تلميذ جعفر الصادق . وهو في هذه الشهرة أشهر تلميذ من
التلاميذ المنسوبين إلى الإمام ^(١) .

ومن أمثلة الإشارات إلى جعفر الصادق الواردة في الكتب المنسوبة إلى جابر ، والتي
تؤكد معاصرته له ولرجلين آخرين أخذ جابر العلم عنهما ، هذه العبارات في « كتاب أسطقس
الأس الثالث » ، وهي « ... ولكن لو كان يتفق له أن يكون في زمان مثل زماننا ، فيخرج
له من الفضلاء مثل من خرج في زماننا نحن مثل سيدي جعفر بن محمد ومثل معني حربي
واذن الحمار المنطقي ... » ^(٢) . وهذه العبارة في : « كتاب الرحمة الصغير » : « قال جابر
ابن حيّان : قال لي سيدي جعفر : يا جابر : فقلت : لبيك يا سيدي . فقال : هذه
الكتب التي صنفتها جميعها وذكرت فيها الدنعة وفصاتها فصولاً وذكرت فيها من المذاهب
 وآراء الناس ، وذكرت الأبواب وخصصت حكل كتاب منها بعمل ... » ^(٣) . والعبارة
الواردة في : « كتاب المقابلة والمناظرة » ، وهي : « اني لما صنعت كتابنا المقابلة التي يكفي
به (؟) وفسرت فيه الكتابين وذكر الآخرة والأخبار (؟) الأربعة الذين ذكرتهم فيه ،

(١) « وله « أي جعفر الصادق » كلام في صناعة الكيمياء والوجز والتمال . وكان تلميذه أبو موسى
جابر بن حيان الصوفي أطرسي . وقد صنّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق .
وهي خمس مئة رسالة » ، الشذرات الذهبية (ص ٨٠) .

(٢) مستغاث في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان الصوفي (باريس ١٩٢٤) (ص ١٠ - ١١) .

(٣) المصدر نفسه (ص ١٤٧) .

عرضته على سيدي جعفر بن محمد عليه السلام ، فقال له (؟) : إقرأه علي ... ^(١) « ... وغير ذلك من مواضع .

وقد أفادتنا العبارات الواردة في « كتاب اسطقس الأس الثالث » فائدة كبيرة لذكرها اسمي « حربي » و « اذن الحمار المنطقي » في جملة الرجال الذين أخذ جابر العلم منهم . أما حربي فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم . ذكره مرة في المقالة العاشرة المحتوية أسماء الكيميائيين والسمعيين من القدماء والمحدثين . ذكره بعد خالد بن يزيد واصططن وقيل اسم جابر بن حبان ، وذكره مرة أخرى في تعداد أسماء مؤلفات جابر ، وفي أثناء كلامه على المصححات التي ألفها جابر في تصحيح آراء ومقالات غيره من المتقدمين عليه والمعاصرين له . فذكر أن لجابر تصحيحاً لآراء حربي سماه كتاب مصححات حربي ^(٢) .

وتفيدنا أسماء بعض المؤلفات التي عزاها ابن النديم لجابر وبعض الأسماء التي وردت في فهرس ابن النديم ولها علاقة بجابر فائدة كبيرة في تعيين الزمن الذي عاش فيه جابر ، وفي تشخيص رسائله وتثبيت حقيقتها . والرسائل التي عزاها ابن النديم إليه وتفيدنا في هذا الباب ، هي : كتاب إلى جمهور الفرنجي ، وكتاب إلى علي بن يقطين ، وكتاب إلى علي بن اسحاق البرمكي ، وكتاب تليين الحجارة إلى منصور بن احمد البرمكي ، وكتاب أغراض الصنعة إلى جعفر بن يحيى البرمكي ^(٣) .

وأشهر هؤلاء المذكورين وأعرفهم ، هو : جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، وزير

(١) A. Siggel, Katalog der Arabischen alchemistischen Handschriften

Deutschlands, Berlin, 1949, S. 16.

وفي النص العربي للقبس أغلاط كثيرة نحوية وصرفية وإملائية لا يمكن وقوعها من رجل معروف مثل جابر . ولا من أي مؤلف آخر عاش في ذلك العهد . وهي من أغلاط النسخ ولا شك .

(٢) الفهرست (ص ٥٠٢) .

(٣) الفهرست (ص ٥٠١) .

الرشيد الشهير ، والمقتول بأسره سنة ١٨٧ للهجرة ^(١) . وقد كان جابر من المتصلين به والمنقطعين اليه ، كما ذكر ذلك ابن النديم ، قال : « كان في جملة البرامكة ومنقطعاً اليها ، ومنقطعاً بجعفر بن يحيى ، فمن زعم هذا قال إنه عنى بسيد جعفر هو البرمكي . وقالت الشيعة إنما عنى جعفر الصادق ^(٢) » .

وكان يحيى بن خالد البرمكي « ١٩٠ هـ » ، والد جعفر نفسه من المشتغلين بالعلوم ، كما كان من الأدباء أصحاب الأسلوب . وقد ذكره ابن النديم في جماعة الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة ، وجعله في جملة المؤلفين ، ولكن لم يورد له مؤلفاً . وقد أمر بتعريب عدد من المؤلفات المدونة بالهندية واليونانية والفارسية . وذكر ابن النديم بينها كتاب المجسطي ، فقال : « وأول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره له جماعة ، فلم يتفهمه ، ولم يرض بذلك ، فندب لتفسيره أبا حسان وسلاماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ^(٣) » . وذكر ابن النديم كتاباً في العطر قال إنه ألف ليحيى بن خالد ^(٤) .

وأما علي بن يقطين ، فكان من رجال الشيعة المنقطعين إلى الإمام جعفر الصادق ، ومن المؤلفين والمتولين لبعض الوظائف في عهد المنصور والمهدي . وكان ممن يوالون جعفر الصادق ويؤيدونه ويحماون إليه الأموال ، وهذا ما عرضه إلى غضب الدولة وإلى الشك في إخلاصه للعباسيين . وقد ولد سنة « ١٢٤ هـ » وتوفي سنة (١٨٢ هـ) . وكان والده

(١) الطبري (حوادث السنة ١٨٧) ، ابن خلكان (١٠٥/١) ، البداية والنهاية

(١٠٠/١٨٩ و ١٩١) .

(٢) الفهرست (ص ١٩٩) .

(٣) الفهرست (ص ١٩٢) .

(٤) الفهرست (ص ٢٧٤) .

(٥) ص ١٤٠ .

« يقطين » من وجود الدعاة ضد الأمويين . وقد طلبه مروان فهرب ، ولم يظهر إلا عند ظهور دولة بني العباس ، فتوغل في دولتهم ، واسكنه كان كائنه يرى الإمامة في آل أبي طالب ، ويعتقد برأيهم ، وقد توفي سنة (١٨٥ هـ) أي بعد وفاة ولده علي . وقد نسب ابن النديم لعلي بن يقطين كتابين : أحدهما كتاب ما سأل عنه الصالح من أمور الملاحم ، والآخر كتاب مناظراته للشياخ بحضرة جعفر ^(١) .

وأود ، والنسكلام على صلة جابر بالبرامكة ، أن أشير إلى شطحة بسيطة فيما أرى ، نبتت من السيد اسماعيل مظهر في أثناء كلامه على جابر قد تورد من يقرأ مقاله في الخطبة ، فأحببت تصحيحها ، وهي قوله : « وكان صديقاً للبرامكة وزراء هارون الرشيد ، وأنه عاش رديحاً من الزمان في بلاط بغداد ^(٢) » ، وقوله : « وأنه أضر إلى الإفضاء ببعض أسرار الصناعات (أي الكيمياء) إلى هارون الرشيد ... » ، وقوله : « وكل ما يحن في هذه الرواية أن المعروف على رواية ابن النديم أنه توفي سنة ١٦٠ هـ ^(٣) . وحينئذ خليفة أنه توفي سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ — ٧٧٧ م) ، ولكن إذا صحت رواية الجلابي ، فلا بد من أن يكون جابر قد عاش بعد هذا العهد بزمان طويل ^(٤) » .

وفي تفسير السيد اسماعيل مظهر : « وأنه عاش رديحاً من الزمان في بلاط هارون الرشيد » وهم يفهم القاري منه أن جابر بن حيان كان نازلاً في قصر هارون الرشيد وفي بلاطه ، وأنه كان على صلة وثيقة به ، وأنه أعطاه سر الصنعة . وهو كلام لم يقله أحد ، ولم يروه راور من المتقدمين . ثم إن كون جابر من المتعلقين بالبرامكة المراجعين لهم والمنقطعين إليهم ، لا يحتم كونه من المراجعين لهارون الرشيد والمنقطعين إليه ، فقد كان بعض الناس

(١) الفهرست (ص ٣١٤) .

(٢) تاريخ تفكير العرب ، (القاهرة ١٩٢٨) . (ص ٧٢) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص ٧٤) .

(٤) كذلك ، (ص ٧٤) . وفي النص : الخلفي . والصحيح الجلابي

من المراجعين لهم ، ولستكنهم لم يكونوا من المنتمين الى الخليفة . ثم إنه رجل عالم ، وقد كان العلماء يضطرون الى الاتصال بأصحاب الجاه والنفوذ للحصول على مساعدتهم ومؤازرتهم ويؤلفون لهم ويذكرونهم في كتبهم رغبة ومؤازرتهم ومساعدتهم في هذه الحياة . وذلك لا يعني أنه عايش في عصر ذلك العظيم ، وأنه قضى ردها من الزمن فيه ، وأنه عايشه عليه ، وأفضى اليه بسر الصناعة إن كان لصناعة سر .

ويظهر مما ذكره ابن النديم عن جابر من أن أكثر مقام جابر كان بالكوفة ومن نعمته بعض من ترجمه له بالكوفي أن جابراً كان قد أقام أمداً في الكوفة ، وأنه اشتغل بها في الكيمياء ومارس حرفته بها ، خاصة وأن ابن النديم قد نص على اسم المكان الذي اشتغل فيه جابر بالصناعة وأجرى تجاربه فيه بأجهزته ومعادنه لتحويل تلك المعادن الى الإكسير . أما اختفاؤه وتنقله في البلدان خوفاً من السلطان على نفسه ، كما ذكر ذلك ابن النديم ، فمن لا ندري سبب ذلك ، ولم يشرح من كتب عنه من القدماء ذلك أيضاً ، ولم يشيروا الى اسم السلطان الذي كان يتعقبه وكان جابر يخشى منه ، هل هو المنصور أو المهدي أو الهادي أو الرشيد ؟ ولم كان ذلك ؟ لأنه كان من الميالين الى العلويين الداعين الى امامتهم ؟ أم لأنه كان من المواليين للإمامة فنضب عليه الرشيد وأمر بالقبض عليه ، أم لأنه كان يدعي الصناعة والوقوف على أسرارها ، وتمسكه من تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، فهو لذلك خائف من السلطان . وقد كان العلماء وأصحاب الجاه يتعقبون أمثال هؤلاء ، لما لذلك من أثر في السياسة العامة وفي عقول الخاصة والرأي العام .

وقد أشار ابن النديم الى ثلاثة أشخاص ذكر أنهم كانوا من تلامذة جابر بن حيان ، هم : الخرق ، وابن عياض المصري ، والإخيمي . أما الخرق ، فكل ما ذكر عنه ابن النديم أنه ينسب الى سكة الخرق^(١) .

(١) التهرست (ص ٥٠٠) .

وأما ابن عياض المصري ، فلم يذكر ابن النديم من خبره ومن مؤلفاته شيئاً^(١) . وقد أشار إليه في موضع آخر ، في أثناء كلامه على أبي الريحاء أحمد بن محمد بن سليمان ، من الرجال المشتغلين في صناعة الكيمياء كذلك . وقد ذكر له كتاب الإفصاح والإيضاح في برانيات ، وكتاب الجامع برانيات ، وكتاب الملاغم ، وكتاب المعجونات ، وكتاب التخمير . ثم قال : « ويقال إن كتاب الإفصاح والإيضاح لابن عياض المصري تليد جابر »^(٢) .

وأما الأحميمي ، فإنه عثمان بن سريد أبو حري الأحميمي ، من أحميم بمصر . وقد كان من المعروفين بأشغاله في صناعة الكيمياء ، وكان من المعاصرين لابن وحشية ، وله معه مناظرات ومكاتبات . وقد ذكر ابن النديم هذه الكتب له : كتاب الكبريت الأحمر ، وكتاب الإبانة ، وكتاب التصحيحات ، وكتاب صرف التوهم عن ذي النون المصري ، وكتاب آلات القدمات ، وكتاب الحل والعقد ، وكتاب التدبير ، وكتاب التصعيد والتقطير ، وكتاب الجحيم الأعظم ، وكتاب مناظرات العلماء ومفاوضاتهم^(٣) .

وهناك رجل آخر لم يشر إليه ابن النديم في جملة من أخذ العلم عن جابر ، هو : يحيى بن أحمد بكر البرمكي . وقد ذكره بروكلن استناداً إلى ما جاء في مقدمة كتابه المسمى : « سراج الظلة والرحمة في معرفة جوهر وروح وموازين وتدابير »^(٤) .

وقد نشر المستشرق « ألفريد سيكل Alfred Siggel » كتاباً من الكتب المنسوبة إلى جابر حيتان ، عنوانه « كتاب السموم ودفع مضارها » ، نشر نصه العربي بطريقة

(١) الفهرست (ص ٥٠٠) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٠٦) .

(٣) الفهرست (ص ٥٠٥) .

(٤) Brockelmann, Suppl., II, S. 249. (١)

التصوير مشفوعة بترجمة ألمانية ، ومقدمة مختصرة صغيرة في جابر بن حيان وفي النسخ العربية التي استفاد منها في ترجمته هذه ومطابقتها وأما كن وجودها ^(١) .

وهذا الكتاب في السموم وخواصها وأصنافها وكيفية استخراجها . وقد أخذ مؤلفه علمه بها من علم العلماء اليونان المتقدمين ، أمثال «هيبوقراط Hippocrates» و«جالينوس» «Galen» و«اندروماتخس Andromachos» وبعض الفلاسفة أمثال أرسطو وأفلاطون ، ومن موارد فارسية ، بدليل ورود أسماء عقاقير عرفت عند الفرس ونباتات فارسية . والغريب أنه أهمل اسم «ديسكوريدس Dioskurides» مع أنه من أشهر علماء اليونان في الصيدلة وتركيب الأدوية والسموم ، وهو نفسه صاحب مؤلف في السموم ^(٢) .

وقد ذكر المؤلف بعض الأدوية وقال إنه أشار إليها في مؤلفين له ، هما : كتاب الطب الكبير ، وكتاب في الأدوية المفردة ^(٣) .

ولم ينص ابن النديم الذي ذكر أسماء أكثر كتب جابر بن حيان على هذين الكتابين بالاسم ، ولكنه ذكر أنه ألف كتاباً عظيماً في الطب . وألف كتاباً صغيراً وكبيراً نحواً من خمس مئة كتاب في هذا الموضوع كذلك ^(٤) . وقد سبق للمؤلف نفسه أن دعا كتابه في الصفحات الأولى المقدمة بـ «الكتاب الكبير في الطب» ^(٥) ، وهو يقصد ذلك الكتاب ولا شك .

وذكر مؤلف السموم اسم مؤلف آخر له سماه «كتاب المزاج» وأشار إلى أن له

(١) راجع عنه ، المجلد الخامس من الجزء الثاني من مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية

(الصفحة ٢٨٦) ، Brockelmann, Suppl., I, S. 225

(٢) Siggel, S. 5.

(٣) راجع (س ١٩٢ ب) .

(٤) الفهرست (س ٥٠٣) .

(٥) (س ٩٩) من النص العربي (س ١٧ من الترجمة الألمانية) .

مؤلفات عديدة أخرى ^(١) . ثم ذكر اسم كتابين آخرين له ، هما : كتاب الفلسفة ، وكتاب الخواص ^(٢) . كما ذكر كتاباً آخر أسماه كتاب الحيوان ^(٣) ، وكتاباً آخر في النبات سماه كتاب النبات ^(٤) ، وذكر أنه ألف كتاباً في الموازين ليرجع إليه الباحثون في تركيب الأدوية ، وقد سماه « كتب الموازين » ^(٥) ، وكتاباً آخر باسم كتاب الضمير ^(٦) .

هذا وقد أشار في متن هذا الكتاب إلى كتب أخرى ذكر أنه ألفها ، منها : كتاب النواميس ، وكتاب الرد على افلاطون ، وكتاب الموازين المثثة والأربعة والأربعين ^(٧) ، وكتاب الحيل الحربية والمساكيد ^(٨) ، وكتاب الحشائش وكتاب الحجارة ^(٩) .

ويساعدنا فهرست ابن النديم مساعدة كبيرة في تعيين هذه الكتب ، ففيم جريدة طويلة بأسماء كتب منسوبة إلى جابر بن حيان ، وفي ضمنها أكثر الكتب المذكورة ، مثل : كتاب الخواص ، وكتاب الحيوان ، وكتاب النبات ^(١٠) ، أما الكتاب الذي سماه « كتب الموازين الأربعة والأربعين » ، فلم يرد بهذا الاسم في الفهرست ، لكننا نجد في هذه الجريدة كتابين لها علاقة به ، هما : كتاب الميزان ، وكتاب الموازين ^(١١) . فقلعتهما

(١) « س 7 a من النص العربي والصفحات ١٠ و (٤٦) من الترجمة الألمانية .

(٢) (س 33 a من النص العربي و س 42 من الترجمة الألمانية) .

(٣) (وأوضحنا ذلك في كتاب الحيوان ، س 42 a من النص العربي) .

(٤) « الصفحة 52 b من النص العربي » .

(٥) الصفحة 58 a من النص العربي و 69 من الترجمة الألمانية .

(٦) الصفحة 132 b من النص العربي و 140 من الترجمة الألمانية .

(٧) س 134 b من النص العربي ، س 142 من النص الألماني .

(٨) س 36 b من النص العربي ، س 14٤ من النص الألماني .

(٩) س 115 a و 115 من النص العربي ، س 123 من الترجمة الألمانية .

(١٠) فهرست (س . . . وما بعدها) .

(١١) المصدر نفسه .

هذا الكتاب ، أو لعل أحدهما هو الكتاب المذكور .

أما كتاب الحجارة ، فلا نجد له ذكراً بهذا الاسم في « الفهرست » ، لكننا نجد فيه اسمي كتابين ذكرهما ، قد تكون لهما علاقة بهذا الموضوع ، هما : كتاب الأحجار ، وكتاب الأحجار الثاني . ثم نجد استطراداً ورد بعد ذلك ، قد تكون له علاقة بهذا الكتاب ، هذا نصه : « ... ثم يتلو ذلك رسائل في الحجر : أولى ، ثانية ، ثالثة ، رابعة ، خامسة ، سادسة ، سابعة ، ثامنة ، تاسعة ، عاشرة ، ولا أسماء لها . وله بعد ذلك عشر رسائل في النبات : أولى إلى العاشرة ، وله في الأحجار عشر رسائل على هذا المثال . فذلك سبعون رسالة » (١) .

ويظهر من كلام صاحب الفهرست أن ما سماه بـ « رسائل في الحجر » ، وهي عشر رسائل ، هو الشيء الذي قال عنه نفسه بعد كلمات ، قال : « وله في الأحجار عشر رسائل على هذا المثال » ، وأن الشئين المذكورين هما شيء واحد ، وهو كتاب يتضمن عشر رسائل عن الأحجار ، وأن هذه الرسائل هي قوام كتاب الحجارة المذكور في كتاب السموم .

وأما أسماء كتاب الزوايس وكتاب الرد على أفلاطون وكتاب الحيل الحربية والمكاييد وكتاب الحشائش ، فلم ترد في هذه الجريدة . ولست أستبعد وقوع « ابن النديم » عليها وذكرها في هذه الجريدة ، ولكن باسم آخر وبدمزان يختلف عن هذا العنوان الذي ذكره المؤلف في كتابه في السموم . ففي « الفهرست » اسم كتاب دعاه « كتاب مصدحات فلاطون » ، في جملة كتب نسبها إلى المؤلف دعاهها مصدحات . هي : « كتاب مصدحات هيناغورس » ، كتاب مصدحات سقراط ، كتاب مصدحات فلاطون ، كتاب مصدحات

(١) الفهرست (ص ٥٠٢) .

أرسطوطاليس ، كتاب مصححات أرسنجانس ، كتاب مصححات أركاغاليس ، كتاب مصححات أمورس ، كتاب مصححات ديمقراطيس ، كتاب مصححات حربي ، كتاب مصححات نحن ^(١) ، ويقصد بذلك تصحيحات آراء وأفكار هي أوهام وأغلاط في نظر المؤلف . فلهذه قصد بـ « كتاب مصححات فلاطون » هذا الكتاب الذي ذكره المؤلف نفسه وسماه « كتاب في الرد على أفلاطون » .

وقد أفادنا مؤلف كتاب السموم فائدة كبيرة بذكر أسماء هذه المؤلفات وبالنص عليها ، كما أفادنا في تكوين رأي فيه وفي البحوث والموضوعات التي اشغل بها وبحث فيها . ويظهر من هذا المذكور أنه كان واسع الاطلاع ، ذا علم بالعلوم ، وأنه على طريقة ذلك العهد وأسلوب الموسوعيين شغف نفسه وألف في معظم بحوث المعرفة الإنسانية ، وأنه كان نشيطاً جداً كما يظهر ذلك من أسماء هذه الكتب ، ومن أسماء كتب أخرى منسوبة إليه .

ومما يلاحظ على هذا الكتاب أنه خلو من ذكر اسم الإمام جعفر الصادق . وقد جرت عادة المؤلف ذكره في كتب الصنعة والكيمياء ، كما جرت عادة المشتغلين بالصنعة والكيمياء ذكره أيضاً باعتباره من المؤسسين للموضوعين ومن الواقفين على السر فيها ، وأنه أخذ هذا السر من آباءه عن علي بن أبي طالب عن الرسول .

ولم يذكر ابن النديم اسم هذا الكتاب الذي أتحدث عنه : « كتاب السموم ودفع مضارها » ، مع أنه ذكر في جريدته المذكورة أسماء أكثر كتب جابر بن حيان . وقد أخذها كما يقول عن فهرست كبير ، زعم أنه له ، أي لجابر بن حيان ، دونت فيه جميع ما ألف في الصنعة وغيرها ، وفهرست آخر صغير يحتوي على ما ألف في الصنعة فقط . ثم لم يكتب — كما يقول ابن النديم — بذلك ، بل ذكر جملاً من كتبه رأساً « وشاهدها

الثقات فذكروها « له ^(١) . كما أورد بعض العبارات التي تدل على نقله من ذلك الفهرست ، كقوله : « قال محمد بن اسحاق ، قال جابر في كتاب فهرسته : ألقت بعد هذه الكتب ثلاثين رسالة لا أسماء لها ، ثم ألقت بعد ذلك أربع مقالات وهي ... » وقوله : « قال أبو موسى : ألقت ثلاث مئة كتاب في الفلسفة » ^(٢) .

ولم يشر ابن النديم الى هذا الكتاب كذلك في أثناء كلامه على الكتب المؤلفة في السموم ، مع أنه ذكر كتباً فيها مثل كتاب السمومات لابن البطريق ، وكتاب السمومات لابند ، وكتاب السمومات ودفع ضررها للكندي ، وكتاب السمومات ودفع مضارها لقسطا بن لوقا ، وقد ذكر كتاباً دعاه : كتاب السمومات وتركيبها وأصولها ، لكنه لم يذكر اسم مؤلفه ، وكل ما ذكره عنه أنه يقع في نحو خمسين ورقة ^(٣) .

هذا ولا بد لي من التنويه هنا بأهمية الموازنة بين هذا الكتاب والكتب العربية الأخرى الواردة في السموم . ولكتب السموم منزلة كبيرة في البحوث العلمية عند العرب وعند القدماء عمومًا ، وقد ألف اليونان والهنود والفرس فيها كتبًا ، نقلت بعضها الى العربية . وقد اعتنى بها رجال السياسة في ذلك العهد عناية خاصة ، وكانوا يستدعون العلماء المشتغلين بالسموم اليهم ، ويطلبون منهم التأليف فيها والبحث في إيجاد سموم جديدة وفي إبطال مفعول السموم ، إذ كان السم في ذلك العهد من أهم الأسلحة الفتاك التي تستعمل في القضاء على الخصوم والأعداء ، وفي التخلص من المواقف المحرجة ، كسلاح في أيدي عدو يعلم أنه سيقضى عليه حتمًا ، وسيمثل به شرًا تمثيل ، ويتقن في تعذيبه قبل أن يبلغه بالعالم الثاني ، تشفيًا منه ، وتنفيسًا لما عواطف الأثيمة التي تستولي على بعض النفوس .

(١) الفهرست (ص ٥٠٠) .

(٢) الفهرست (ص ٥٠٢ وما بعدها) .

(٣) الفهرست (ص ١١٠) .

وهناك آلاف من النسخا السياسية ، قضي عليهم بدس السم لهم في طعانتهم أو شرايتهم من حيث لا يعلمون .

هذا وقد نشر أحد المستشرقين ، وهو « أرگت يحيى هولميارد Frig John Holmyard » في سنة ١٩٢٨ م مجموعة من المصنفات المنسوبة الى « جابر » في الكيمياء تحتوي على رسائل يقع بعضها في جملة أوراق ، نشرت في كتاب واحد بهذه العناوين : كتاب البيان ، وكتاب الحبر ، وكتاب النور ، وكتاب الايضاح ، وكتاب أسطقس الأس الأول على رأي الفلاسفة ، وكتاب أسطقس الأس الثاني ، وكتاب أسطقس الأس الثالث ، وكتاب تفسير الأسطقس ، وكتاب التجريد ، وكتاب المنفعة ، وكتاب الرحمة الصغير ، وكتاب الملك ^(١) .

وكتاب البيان ، هو ثمانى صفحات من صفحات هذا الكتاب الحاوي على الرسائل المذكورة . وقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم ^(٢) . وكتاب الحبر ٢٨ صفحة . وكتاب النور ثلاث صفحات ، وكتاب الايضاح ثمانى صفحات ، وكتاب أسطقس الأس الأول ، ست عشرة صفحة ، وكتاب أسطقس الأس الثاني ، ثمانى عشرة صفحة . فأما كتاب أسطقس الأس الثالث ، أربع عشرة صفحة ، وكتاب الأسطقس عشر صفحات ، وكتاب التجريد ست عشرة صفحة ، وكتاب المنفعة صفحتان ، وكتاب الرحمة الصغير إحدى عشرة صفحة ، وكتاب الملك اثنا عشرة صفحة .

ونرى من هذا التعداد أن ما قيل له كتاب ، هو في الواقع رسالة ، وأن تلك الكتب هي رسائل بعضها رسائل صغيرة ، لو أعيد طبعها لسكانت في حدود صفحة واحدة ليس غير . وقد جمعها أرگت يحيى هولميارد هذا ، وطبعها كلها في نحو (١٧٢) صفحة . وهي لو

(١) طبعت بمدينة (باريس) بمطبعة « Paul Geuthner »

(٢) ص ١٠٠ .

طبيعت من غير شرائح لجامعت أقل من هذا العدد بكثير .

وقد ورد في هذه الرسائل أسماء مؤلفات أخرى للمؤلف أحال القاري عليها ، ويظهر أن من أسلوبه في مؤلفاته الإشارة إلى أسماء كتبه ، ليحيل القاري عليها عند بحثه في موضوع قد يصعب فهمه عليه . وقد أعادنا بالطبع في طبعه هذه ، إذ أرشدنا إلى بعض مؤلفاته ، ومكننا من الوقوف عليها ومن رجوعنا إلى فهرست ابن النديم لمقارنتها بأسماء الكتب الواردة في هذا الفهرست على أنها من كتب جابر بن حيان .

ومن هذه الكتب التي وردت أسمائها في هذه الرسائل : كتاب الحيوان ، وكتاب الحجر ، وكتاب النباتات ^(١) ، وكتاب الإمامة ^(٢) ، وكتاب السبعين ^(٣) ، وكتاب الباء وتولد الجنين ^(٤) ، وكتاب المئة وأربعة وأربعين ^(٥) ، وكتاب الرحمة ^(٦) ، وكتاب الذكر والأنثى ^(٧) ، وكتاب المني ^(٨) ، وكتاب الحماة ، وكتاب السكال ^(٩) ، وكتاب التدابير في الحماة ^(١٠) ، وكتاب غرض الأغراض ^(١١) ، وكتاب النظم ، وكتاب الملك من الخمسة ، وكتاب صفة الكون ^(١٢) ، وكتاب المفرد ^(١٣) ، وكتاب الاثنين والثلاثين ^(١٤) .

(١) مولارد : مصنفات في علم السكيباء (ص ١٢) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٢) .

(٣) كذلك (ص ٢٤ ، ١١٩) .

(٤) كذلك (ص ٣٢) .

(٥) كذلك (ص ٣٦) .

(٦) المصدر نفسه (ص ٤٨) .

(٧) كذلك (ص ٨٤) .

(٨) كذلك (ص ٨٥) .

(٩) د (ص ١٠٤) .

(١٠) د (ص ١٠٥) .

(١١) د (ص ١١٧) .

(١٢) د (ص ١١٩) .

(١٣) د (ص ١٢٥) .

(١٤) د (ص ١٢٠) .

أما كتاب الحيوان ، فقد ورد اسمه في كتاب السموم ، وذكره ابن النديم كما قلت .
وأما كتاب الحجر ، فيظهر أنه الكتاب الذي ورد ذكره في كتاب السموم باسم كتاب
الحجارة الذي تحدث عنه من قبل . وأما كتاب النبات ، فقد تحدث عنه كذلك ، وقد
ورد اسمه في كتاب السموم . وأما كتاب الإمامة ، فلم يرد له ذكر في كتاب السموم ولا في
فهرست ابن النديم ، ولم يشر إليه « بروكلمن » كذلك ^(١) . وأما كتاب السبعين ، فالظاهر
أنه كان رسائل يبلغ عددها سبعين رسالة ، أطلق على كل رسالة منها عنوان : كتاب ،
ويضم ذلك صراحة من هذه الجمل الواردة في فهرست ابن النديم : « وله بعد ذلك سبعون
كتاباً ، منها : كتاب اللاهوت ، كتاب الباب ، كتاب الثلاثين كلمة ، كتاب المني ، كتاب
الهدى ، كتاب الصفات ، كتاب العشرة ، كتاب النعوت ، كتاب العهد ، كتاب السبعة ،
كتاب الحى ، كتاب الحكمة ، كتاب البلاغة ، كتاب المشاكفة ، كتاب خمسة عشر ،
كتاب الكفو ، كتاب الاطاعة ، كتاب الراوق ، كتاب القبة ، كتاب الضبط ، كتاب
الاشجار ، كتاب المواهب ، كتاب المخنقة ، كتاب الاكليل ، كتاب الخلاص ، كتاب
الوجيه ، كتاب الرغبة ، كتاب الخلقة ، كتاب الهياة ، كتاب الروضة ، كتاب الناصع ،
كتاب النقد ، كتاب الطاهر ، كتاب ليلة ، كتاب المنافع ، كتاب اللعبة ، كتاب المصادر ،
كتاب الجمع . فهذه أربعون كتاباً من السبعين كتاباً . ثم يتلو ذلك رسائل في الحجر : أولى ،
ثانية ، ثالثة ، رابعة ، خامسة ، سادسة ، سابعة ، ثامنة ، تاسعة ، عاشرة ، ولا أسماء لها .
وله بعد ذلك عشر رسائل في النبات : أولى الى العاشرة . وله في الاحجار عشر رسائل
على هذا المثال . فذلك سبعون رسالة . » ^(٢) . وقد أشار الحاج خليفة في كشف الظنون .

(١) Brockelmann, Suppl., I, S. 427. ff.

(٢) الفهرست (ص ١٠٠ وما بعدها) .

الى كتاب الجار سماه « كتاب السبعين في الصنعة »^(١) ، والظاهر أنه يقصد هذه الرسائل السبعين .

وأما كتاب « الباء وتولد الجنين » ، فلم يرد له ذكر في فهرست ابن النديم ولا لدى « بروكلن » . وهو كما يظهر من عنوانه ومن ورود اسمه في موضوع طبي حياتي ، في النطفة وفي تولد الجنين وفي الفرق بين الطبيعتين ، طبيعة الرجل وطبيعة الأنثى^(٢) .

وأما كتاب « المائة وأربعة وأربعين » ، فالظاهر أنه على نمط كتاب السبعين ، مجموعة رسائل وأبواب دعيت كل رسالة بكتاب ، يبلغ مجموعها (١٤٤) رسالة . ولكل رسالة عنوان قائم بذاته . وتكون كلها مجموعة تبحث في « الطعوم » ، وذلك كما يظهر من عبارة المؤلف في « كتاب الحبر » حيث يقول : « وقد توسعنا في ذكرها في سائر كتبنا . فنخذ الألوان من السبعين ، والأرايح من كتبنا في الكيفيات ، والطعوم من كتبنا من المائة وأربعة وأربعين خاصة . فإننا قد استقصينا كلاً من ذلك بحسب ثبوتته في موضعه الخالص به من كتبنا »^(٣) . ولم أجد في الفهرست إشارة الى هذا الكتاب . أو مجموعة تدعى : المائة وأربعة وأربعين .

وأما كتاب المنى ، فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم^(٤) . وأما كتاب الحماز ، فلم يذكره ابن النديم بهذا العنوان ، بل ذكر ثلاثة كتب في عنوانها لفظة واحدة زائدة على هذا العنوان . هي : كتاب الحماز الكبير ، وكتاب الحماز الصغير ، وكتاب فضلات الحماز^(٥) . فلا أدري أي كتاب من هذه الكتب الثلاثة قد يكون ذلك الكتاب المذكور .

(١) كشف الظنون (٩٢/٥) .

(٢) ونسكنا في كتبنا الطبيعية والطبية وفي كتاب الباء وتولد الجنين . وقلنا : إن الأنثى أرحم من الذكر ، والله الذي أكثر غلبة ويبدأ من الأنثى . (ص ٣٢) من موليارد .

(٣) موليارد (ص ٢٦) .

(٤) (ص ٥٠١) .

(٥) (ص ٥٠٠ وما بعدها) .

ونفهم من فهرست ابن النديم أن صاحب كتاب الخائز كان قد ألف كتاباً مطولاً في الخائز، ثم عاد فاختصره وعنوانه يد «كتاب الخائز الصغير»، ليكون مرجعاً قريباً من الراغبين في البحث في الخائز. أما كتابه الآخر «فضلات الخائز»، فيجوز أن يكون جزءاً أصيلاً من كتاب الخائز الكبير، ويجوز أن يكون كتاباً مستقلاً وضعه في الفضلات المتولدة من الخائز.

وقد أشار بروكلمان إلى كتاب آخر في هذا الموضوع دعاه «كتاب واحد الخائز»^(١). لا أدري أكان أحد هذه السكتب المذكورة، دخل على عنوانه بعض التحريف، أم كان كتاباً آخر ألفه في هذا الموضوع.

وأما كتاب التداير في الخائز، فلم يذكره ابن النديم. ولكنه ذكر كتابين قد يكون لأحدهما أو لسكليهما صلة به، اسم أحدهما «كتاب التداير الرائية»، واسم الآخر «كتاب التداير». وقد وضع ابن النديم بعد اسم السكتب الثاني كلمة «آخر»^(٢) بمعنى أن هذا السكتب الثاني، هو كتاب آخر يختلف في بحثه عن ذلك السكتب. ففعل لأحد الكتابين المذكورين علاقة بكتاب التداير في الخائز. وقد أورد بروكلمان اسم كتاب دعاه: «كتاب التداير»^(٣). قد يكون هو هذا السكتب الذي تبحث عنه، وقد يكون السكتب الآخر الذي أشار إليه صاحب الفهرست، وذلك إذا كان كتاباً آخر لا علاقة له بذلك السكتب.

وأما كتاب غرض الأغراض، فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم، ولكن بهذه الصورة: «عرض الأغراض»^(٤). وهذا الفرق الذي نراه في العنوانين نشأ من تصحيف

(١) Brockelmann, Suppl., I, S. 428.

(٢) الفهرست (ص ١٠٠).

(٣) Brockelmann, Suppl., I, S. 428, Asaf., III, 57S.

(٤) ص ١٠١.

التيست اخ .

وأما كتاب النظم ، فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم ^(١) . وأما كتاب الميزان المفرد ، فلم يرد بهذا العنوان في فهرست ابن النديم ، وإنما ذكر ابن النديم كتاباً آخر سماه كتاب الميزان ، قد تكون له صلة بهذا الكتاب ^(٢) . وأما كتاب حفة السكون ، فلم يذكره ابن النديم . ولم يذكر ابن النديم اسم كتاب الاثنين والثلاثين كذلك . والظاهر أن هذا الكتاب هو مجموعة رسائل على النمط الذي رأيناه ، يبلغ عددها اثنين وثلاثين ، فأطلق عليها هذا العنوان .

وأما كتاب الخواص الكبير ، فقد أشار إليه « الحاج خليفة » ، في أثناء كلامه على كتاب السر الرقائي في علم الميزان لعلي بيك الرومي ، فقال ان هذا المؤلف قد استعان بكتاب الخواص الكبير لجابر ، وإنه أراد اظهار هذا السر سر الميزان ، الذي لم يشر اليه غير بلياس ^(٣) . وقال في موضع آخر إنه « إحمدي وسبعون مقالة » ، أوله : الحمد لله كما هو أهله ومستحقه الكريم ... الخ بحث فيه في خواص الأشياء المتعلقة بالسكافه ^(٤) .

هذا ، وقد نقل « سيكل Alfred Siegel » في فهرست المخطوطات الكيميائية العربية المحفوظة في خزائن الكتب الألمانية « تنقلاً من صفحات كتاب منسوب الى جابر ، اسمه كتاب المقابلة والمهالة ، وقد وردت فيها أسماء كتب أخرى للمؤلف ، منها : كتاب السر المكنون ، وكتاب الحاصل ، وكتاب النظم . وغيرها أيضاً قوله : « إني لما صنفت كتابنا المقابلة التي يكفي به (?) ، وفسرت فيه الكتابين وذكر الأخرى والأخبار الأربعة (?) الذين ذكرتهم فيه ، عرضته على سيدي جعفر بن محمد عليه السلام ، فقال له (?) : اقرأه علي .

(١) الفهرست (ص ٥٠١) .

(٢) ص ٥٠٢ .

(٣) كشف الظنون (٥٩٢/٢) .

(٤) المصدر نفسه (٨٢/٥) .

فلما قرأته عليه ، قال لي : ما ظننت بك يا جابر أن تسمح لنفسك بهذا (٢) الساحة في كشف الحكمة المصونة والعلم الإلهي ... » (١)

هذا ، وقد ذكر بروكلمن كتاباً منسوباً الى جابر سماه « كتاب في الطلسم ونحورات الكواكب للمائلة والمقابلة » (٣) ، قد تكون له علاقة بهذا الكتاب . فقد وردت في هذه التنف هذه العبارات : « ... إنا قد وطينا بما قد ودعنا في كتابنا الذي سميناه بكتاب المقابلة ، وذلك أنا قد قلنا في غير موضع إن موضع الميزان والطلسمات واستخدام العلويات إنما هو على المقابلة والمائلة ... نظرت الى ذلك من أي قسم من أقسام الطبائع هي .. » (٤) ، وهذه الكلمات بعض الصلة بالموضوع .

وقد أورد بروكلمن أسماء عدد من الكتب المنسوبة الى جابر بن حيان ، وسمى بعض خزائن الكتب التي قد توجد فيها (٥) . وبعض هذه الكتب مذكور في فهرست ابن النديم ، وبعضه غير مذكور . ولهذا فان قائمة بروكلمن وأسماء الكتب التي فيها والواردة في ثنايا الكتب والرسائل المنسوبة الى جابر بن حيان ، تزيد في عدد الكتب التي ذكرها ابن النديم ، وتزيد في علمنا نحن بهذه الكتب العديدة والثروة العلمية القيمة المنسوبة الى جابر ابن حيان .

وقد أشار أبو القاسم محمد بن أحمد العراقي السماوي ، من رجال القرن السابع للهجرة على ما يظن (٥) ومن المشتغلين بالكيمياء أيضاً ، الى كتاب لجابر اسمه « كتاب الروضة » ،

(١) Alfred Siggel, Katalog der Arabischen Alchemistischen Handschriften Deutschlands, 1949, S. 16.

(٢) Brockelmann, Suppl., I, S. 429, Num. 61, (٢)

(٣) س ١٠

(٤) Brockelmann, Suppl., I, S. 426. ff, (٤)

(٥) Holmyard, Kīsh' Al 'ilm al-muktasab fi Zira'at adh-dhab, P. 5. (٥)

وهو في الكيمياء على ما يظهر ، لنقله منه فقرات في « باب التكليس »^(١) ، وذكر كتاباً آخر اسمه « كتاب الابدال من الخمس مئة » ، ونقل منه أيضاً^(٢) . والظاهر أن هذا الكتاب هو في الفلسفة ، وفي أمور في الصناعة وفي غيرها مما لها علاقة بالفلسفة كما يتضح ذلك من الكتاب المنسوب الى جابر المتضمن مؤلفاته ، وقد ورد فيه : « ثم ألقت بعد ذلك خمس مئة كتاب ، تقضاً على الفلسفة »^(٣) .

ووردت في « كتاب حرة الغواص وكثر الاختصاص في علم الخواص » للجلاكي أسماء بعض كتب أفاد من النقل منهجها ، نسبها الى جابر ، هي : الرسائل الجابرية في الخواص والموازن ، وكتاب المقاصد ، وكتاب التجميع ، وكتاب روضة الفلسفة^(٤) . ونقل المؤلف في كتابه المسمى « كتاب انوار الدرر في إيضاح الحجر » من كتاب آخر نسبته الى جابر بن حيان ، هو « كتاب الأطياف »^(٥) .

وقد استند ايدير بن علي الجلاكي في كتابه البرهان في أسرار علم الميزان ، وهو كتاب يقول فيه الحاج خليفة إنه كتاب كبير يقع في أربعة أجزاء كبار ، الى « كتاب جابر في الاجساد » ، وحل فيه غالب كتاب الموازين لجابر ، كما استعان بكتاب « بليناس » في الأجساد الأربعة^(٦) ، وذكر له كتاباً آخر اسمه « روح الأرواح في الإكسير »^(٧) .

(١) المصدر نفسه (ص ٢٩) .

(٢) كذلك (ص ٤٦) .

(٣) الفهرست (ص ٥٠٣) .

(٤) « روضة الفلسفة لجابر المذكور ، اعني صنعة الكيمياء وعمل الإكسير » .

A. Siggel, Kata. Arab. Alch., S. 74. ff.

(٥) ١٥١ ص ٢٢ ، ٢٨ ، A. Siggel, S. 84.

(٦) كشف الظنون (٤٨/٢) .

(٧) المصدر نفسه : ١٥٢/٢ .

وقد وردت نقول في « كتاب الكثر في فلك الرمز » ، وهو من السكتب المحفوظة في خزانة الكتب البروسية في برلين من كتب جابر . وقد رجع مؤلفه ، وهو مجهول عندنا لم يرد اسمه في الكتاب ، الى جملة كتب من كتب جابر ، منها كتاب سماه « العلم المخزون والمعروف » ^(١) .

وورد في « كتاب الفتوحات الغيبية في تدبير الأرواح الحكيمة » ، مؤلف مجهول يظن أنه عبيد الكريم بن يحيى بن عثمان المراكشي ، ذكر كتاب من كتب جابر اسمه : « كتاب الصافي من الخمس مئة » ، ويظهر أنه من هذه المجموعة المعروفة بالخمسة مئة كتاب التي أشرت إليها فيما سلف . وقد اقتبس منه في الفصول التي عقدها في « المركبات » ^(٢) . وورد في « كتاب الجواهر النضير في صناعة الإكسير » لمحمد بن عبيد الله الطغراني ، ذكر لكتابين من الكتب المنسوبة الى جابر ، هما : كتاب المجردات ، وكتاب الكشف ^(٣) .

وقد كانت لجابر بحوث في الفلك والأسطرلاب . ذكر محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بأبن المشاط الأسطرلابي الأندلسي « أنه رأى لجابر بن حيّان بمدينة مصر تأليفاً في عمل الأسطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها » ^(٤) . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب له في علم الهيئة والفلك وفي شرح المجسطي وغير ذلك من العلوم . وذكر الحاج خليفة في كشف الظنون كتباً أخرى لجابر ، هي كتاب علل المعادن ، وقال إن أوله : « الحمد لله الذي خلق الأشياء من قدره الخ » ، وكتاب العلم المخزون في

(١) A. Siggel, Kat. S. 95.

(٢) A. Siggel, Kat., S. 100, f.

(٣) A. Siggel, Kata., S. 144.

(٤) ابن الفوطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص ١١١) .

الصنعة^(١) . وكتاب الاحراق ، وقال : إن أوله « الحمد لله القاسم على كل نفس بما كسبت .. »^(٢) و « كتاب الخالص في الكيمياء للشيخ جابر بن حيان الطرسوسي ، وقيل الطوسي امام علم الكيمياء المتوفى سنة ١٦٠ ، ذكر فيه أسرار الصنعة »^(٣) . وكتاب الشعر^(٤) ، وقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم^(٥) ، و « كتاب الصافي من الخمس مئة » وقال : أن أوله « الحمد لله المجازي بالاحسان المتفضل بالفقران » ، وهو ورقة كما يقول الحاج خليفة^(٦) ، وهناك رسائل على هذا النحو يُحال من أسمائها أنها مكتوب ، وهي ورقة أو جملة أوراق .

وقد يكون كتاب العهد المبتدأ بهذه الجملة : « هذا كتاب العهد اليكم يا بني الأكارم ... » ، من هذا القبيل . فقد أشار الحاج خليفة الى أنه مختصر^(٧) . وأما كتاب القمر في الصنعة ، فهو من جملة المئة والاثني عشر كتاباً ، وقد أشار الحاج خليفة اليه كذلك^(٨) . وأما كتاب المعادن . فالظاهر أنه كتاب علل المعادن الذي مر ذكره ، وذلك كما يفهم من إشاره الحاج خليفة اليه ، وهو في علل المعادن وأسبابها^(٩) .

(١) كشف الظنون (٢٤٦/١ وما بعدها) .

(٢) المصدر نفسه (٣٤/٥) .

(٣) المصدر نفسه (٧٩/٥) .

(٤) كتاب الشعر لجابر بن حيان الفيلسوف الطوسي المتوفى سنة ١٦٠ ، كشف الظنون

(١٠٩/٥) .

(٥) الفهرست (ص ٥٠٠) .

(٦) كشف الظنون (١٠٩/٥) .

(٧) كشف الظنون (١٢٠/٥) .

(٨) المصدر نفسه (١٢٧/٥) .

(٩) كذلك (١٠٩/٥) .

ونسب الحاج الخليفة كتاباً آخر الى جابر اسمه : كتاب النخب ، وقال إنه في مجلدين ^(١) .
وأما كتاب منافع الحجر ، فهو من المختصرات ، وقد ذكر الحاج خليفة أن جابراً قد أودع
فيه أسراراً كثيرة من الصنعة ^(٢) . وذكر له كتاباً آخر اسمه مهج النفوس ، ولم يذكر
شيئاً عنه ^(٣) . وكتاباً آخر أيضاً اسمه نهاية الأدب ^(٤) .

ولتكوين رأي صحيح صادق في علم جابر ومصادره ، وفي حقيقة هذه الكتب
والرسائل المنسوبة اليه ، لا بد من الرجوع الى المتبقي منها من مخطوط أو مطبوع وإلى
المقتبسات من كتبه في الكتب الأخرى ، لدراستها دراسة علمية عميقة ، وتحليلها تحليلاً
يؤدي الى معرفة العناصر التي كوت هذه الكتب والرسائل ، والزمن الذي دونت فيه ،
وذلك يحتاج بالطبع الى وقت طويل يقضى في استيعاب موضوعاتها ودرس أساليب
التعبير عن الموضوعات العلمية في ذلك العهد وفي المصطلحات التي كانت شائعة أيام جابر .
وفي مقارنات بالسكتب المؤلفات في هذا الباب .

وبين هذه المؤلفات ما ورد اسمه في فهرست ابن النديم كما رأينا ، أو في موارد قديمة
أخرى ، ولهذا لا نستطيع الشك في وجودها في أيام من أشار إليها أو في أيام سابقة لأيامهم .
ويمكن التأكد منها أيضاً بمقابلتها أو بمقابلة نتف منها ، إن كانت قد فقدت ولم يبق منها
غير نتف ، بالمقتبسات منها في مؤلفات آخرين . وسترينا هذه الطريقة بالطبع درجة
التطابق والتوافق أو الاختلاف : وهي طريقة تساعدنا ولا شك في تعيين الأصل ، وصحة
النسبة الى المؤلف . وستوصلنا الى معرفة أقدم مورد أشار الى الأثر ، والزمن الذي تنتمي
عنده أقوال الرواة .

(١) كشف الظنون (١٦٣/٥) .

(٢) المصدر نفسه (١١٠/٦) .

(٣) كذلك (١٧٣/٦) .

(٤) كذلك (٣٩٦/٦) .

ونظراً الى ما في بعض هذه الكتب والرسائل من مصطلحات وتعبير تشعر أن صاحبها من المعتقدين بالإمامة ، وأنه على رأي الإسماعيلية الباطنية ، لاستعماله مصطلحاتهم وتعبيرهم وآرائهم في بعض هذه الرسائل ، لذلك وجب مطابقتها ومقارنتها بما ورد منها في رسائل اخوان الصفاء وفي كتب الباطنيين ، والرجوع الى توارخ ابتداء ظهور تلك المصطلحات لتتوصل بذلك الى أصل هذه المؤلفات المنسوبة الى جابر ، وللوقوف على مذهب جابر إن صح أنها له ، أو وقت وضعها عليه ونسبتها اليه ، إن ظهر أنها لا يمكن أن تكون من الأيام التي عاش فيها جابر ، لوجود موانع تاريخية تمنعنا من الأخذ بنسبة هذه الآثار اليه . ولا بد كذلك من الرجوع الى الشروح التي وضعها العلماء ولا سيما المتقدمين منهم على كتب جابر ، مثل شرح أبو قران النعماني في كتاب الرحمة ، وأبو قران من أصحاب صناعة الكيمياء ، وهو ممن يشير اليه أهل هذه الصناعة ويقدمونه ويفضلونه ^(١) . وشرح ابن أبي العزاقر ، وهو أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني في كتاب الرحمة ^(٢) . والشلمغاني من الشخصيات المعروفة المشهورة في تأريخ الشيعة . وقد اتهم بالزندقة والاحتيال وبأمور أخرى نخرجنا سردها هنا من صلب هذا الموضوع .

وشرح « محمد بن منكيمشين » كتاب الرحمة في الكيمياء ، شرحه ليسهل على طلابه الوقوف عليه وفهمه و « رحمة على الطلاب المخدوعين وتقرباً الى الله تعالى به » . وشرح منه أصول الصناعة التي لا غناء من الطالبين عنها ^(٣) .

والحديث في الكيمياء يجرنا الى الحديث في موضوعات أخرى لها صلة شديدة بالكيمياء ، بل هي في الواقع فروع من هذا العلم ، مثل السموم وعمل الصيدنة « الصيدلة » وصناعة

(١) المهرست (ص ٥٥٥) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٠٧) .

(٣) كشف القاتون (٨٦ / ٥) .

الطور وكتب الصنعة بصورة عامة .

وصناعة الكيمياء في نظر علماء ذلك العهد ، هي صنعة الذهب والفضة من غير معادنها ^(١) . ويقصدون بذلك صنع الذهب والفضة من معادن أخرى خفيفة ذات ثمن بخس ، أنحس من ثمن المعدنين ، وذلك بتحويل خصائص المعادن الخفيفة بالطرق الكيميائية الى خصائص الذهب أو الفضة ، ومتى تغيرت هذه الخواص واكتسب المعدن الخفيف خواص جديدة هي خصائص معدن الذهب أو الفضة صار ذلك المعدن ذهباً أو فضة بحسب نوع التحويل .

والكيمياء في نظر أولئك العلماء ، علم قديم جداً ، ينسب بعضهم الى موسى وهارون فيذكرون أن الله أوحى بسر هذه الصناعة اليها ، فتعلماه منه . وذلك لما رأى الله أن قارون ، وكان يتولى لها ، كبر وتجبّر لما كثر عنده الذهب والفضة وكثر الكنوز ، وسطا بما عنده من الأموال ، فعاقبه الله بدعاء موسى . ويذكرون أيضاً أن هذه الصنعة كانت معروفة قبل « هرمس » بألف سنين ، وأن « هرمس » كان عند بعضهم أول من تكلم بنى علم الصنعة .

— للبحث صلة —

جواد علي

(١) القمبست (ص ١٩٣ وما بعدها) .